

جوزف إليان

www.difa3iat.com

نابك كفيفان

جوزف إليان

نايك كفيفان الأخ اسطفان نعمة

طبعة أولى

١٩٩٧

*

جميع الحقوق محفوظة

*

منشورات المكتبة البوليسية

شارع لبنان - بيروت - ص.ب: ٤٤٥٩ - ١١ لبنان
هاتف: ٤٤٤٩٧٣ - ٤٤٨٨٠٦ - ٤٤٩٨٠١
شارع القديس بولس - جونيه - ص.ب: ١٢٥ لبنان
هاتف: ٩١١٥٦١ - ٩٣٣٠٥٢

ملاحظة: أنشئت هذه السيرة لأنها تتكلم عن شاهد من شهود المسيح يحسن الاقتداء به، ولو أن الكنيسة لم تطوّبه ولم تعلن قداسته.



الأخ إسطفان نعمة

www.difa3iat.com

www.difa3iat.com

www.difa3iat.com

www.difa3iat.com

لِحَفْدٍ

«ذَكَرَهُمْ وَلَمْ يَنْسَ صِرَاحَ الْبَائِسِينَ. اِرْحَمْنِي يَا رَبِّ
وَانْظُرْ إِلَى بُؤْسِي مِنْ مِبْغُضِي، يَا رَافِعِي مَنْ
الْمَزْمُور ٩: ١٣ - ١٤ أَبْوَابِ الْمَوْتِ».

خلعت لِحَفْدٍ، تلك القرية الجبلية، المستقلية على شُرْفَةِ الوادي،
ثوب العتمة وأقبلت تستحِمُّ في دفء النُّور. الأعشاب بزِيَّها الأخضر
كاخضرار السَّماء، الأزهار المتبرِّجة في الحواكير كالعرائس، الأشجار
المنتصبة على السُّفوح وفي الوديان راقصة فرحى، السُّهول والجلالي
المتماوجة بالزُّروع اليافعة تستعدُّ لاستقبال الرِّبيع. كلُّ شيء في القرية
هجر منازل البرد والعتمة وارتدى ثوب الرِّبيع.

تحوَّلت حناجر العصافير إلى أوتار سَكْرَى وخيرُ الينابيع، وحفيفُ
أوراق الشَّجر، وسقسقة الجداول وهمسُ المحبِّين غدت ألحانا رقراقة
نشوى.

حَبَّاتِ التُّرَابِ نَفْسُهَا تَتَبَرَّجُ وَتَتَعَطَّرُ بِنَدَى الْأَجْنَحَةِ الْبَهْجَةِ
لَتَسْتَقْبِلَ الرَّيِّعَ وَيَفْوُحُ لَهَا شَذَى لَا يُضَاهِيهِ عَطَرُ الْيَاسْمِينِ وَالْوَرْدِ،
يَسْكُرُكَ وَيَمْلَأُ قَلْبَكَ فَرْحًا.

عَيُونَ الْعِذَارَى اكْتَحَلَتْ بِالسَّحَرِ وَأَصْوَاتُهُنَّ رَقَّتْ كَالنَّسِيمِ، فَرِحَةَ
بِالْمُزْمِعِ أَنْ يَقْبَلَ وَقَدْ بَدَتْ تَبَاشِيرُهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ.

تَقْوُدُ إِلَى لَحْفَدِ طَرِيقٍ ضَيِّقَةٍ كَجَمِيعِ طَرَقَاتِ لَبْنَانَ الْجَبَلِيَّةِ فِي ذَلِكَ
الزَّمَانِ، وَلَكِنَّهَا حَنُونٌ، تَمْشِي بَيْنَ أَشْجَارِ السَّنْدِيَانِ وَالْبُطْمِ وَاللُّوزِ
فَتَمْنَحُكَ ظِلَّهَا الطَّرِيقَ الْمُنْعَشَ.

تَدْخُلُهَا فَلَا تَرَى بَيُوتَهَا الْمُتَوَاضِعَةَ الْمَنْشُورَةَ عِنْدَ السَّفْحِ حَبَّاتٍ
لَوْلُو، إِذْ تَخْبُوْهَا عَنْ عَيْنَيْكَ أَشْجَارُ الْكَرْمَةِ وَالْعَفْصِ. فَقَدْ تَشَاهَدَ
بَعْضًا مِنْهَا هَرَبَ إِلَى الْوَادِي وَبَعْضَهَا الْآخَرُ تَسْلُقُ الْمُنْحَدِرَ وَتَعْلَقُ بِجُذُورِ
الصَّخْرِ. بَيْوتٌ تَتَلَاخَقُ مُتَبَاعِدَةٌ مُتَجَافِيَةٌ تَارَةً، مُتَقَارِبَةٌ مُتَعَانِقَةٌ
أُخْرَى. وَكُلٌّ مِنْهَا كُومَةٌ مِنْ عَطَرٍ وَحُبٍّ وَإِضَامَةٍ حَبَقٍ وَمِنْشُورٍ.

كُلُّ بَيْتٍ مَسْبَحُ ظِلٍّ، نَسْكُنُهُ كَمَنْ يَسْكُنُ أَرْجُوحَةً ذَكْرِيَّاتٍ.
وَنَشْمُ رَائِحَةَ حِجَارَتِهِ وَطِينِهِ فَنَسْمَعُهَا تَوْشُوشَ فِي آذَانِنَا أَنَاشِيدَ
عَافِيَةٍ، مَسَافَرَةٍ فِي بَحُورِ الْمَاضِي الْعَتِيقَةِ وَأَعْجَادٍ مَكْفَنَةٍ بِغُبَارِ أَيَّامٍ
أَنْصَرَمَتْ.

كُلُّ بَيْتٍ يَسْتَرِيحُ وَيَغْفُو عَلَى زُنُودِ السَّنْدِيَانِ وَجُذُوعِ الْجَفْنَاتِ
الْمُلْتَفَّةِ السَّمَرَاءِ كَأَنَّهَا تَنْشُدُ أَغَانِي الْوَصَالِ وَالْأَعِينِ تَشْتَقِي لِسَمَاعِ
صَمْتِ الْوَادِي الظَّلِيلِ.

تَسْبَلِقِي لِحَفْدِ بَرَاةٍ وَتَتَمَدَّدُ عِنْدَ أَقْدَامِ جَبَلٍ جَاغٍ الْمَتَمَرِّدِ عَلَى كُلِّ مَا يُحِيطُ بِهِ مِنْ جِبَالٍ لِيَقِفَ عُنِيدًا بَيْنَهَا وَبَيْنَ مِيفُوقٍ. وَهَذَا الْمَصِيفُ مَشْهُورٌ بَيْنَابَيْعِهِ السَّخِيَّةِ وَدِيرِ سَيِّدَةِ اِيلِيَجٍ، مَقَرِّ الْبَطَارِكَةِ الْقَدِيمِ، الَّذِينَ هَرَبُوا مِنَ التَّعَسُّفِ التَّرْكِيِّ. وَتَنْهَضُ، وَسَطَ لِحَفْدٍ، تَلَّةٌ تَنْبُتُ مِنَ الْأَرْضِ كَزَهْرَةِ الْاِقْحَوَانِ، تَشْمَخُ بِأَنْفِهَا إِلَى الْعَلَاءِ، مَعْجَبَةً بِنَفْسِهَا حَامِلَةً عَلَى مَنْكِبِهَا كَنِيسَةً مَارِ اسْطِفَانَ تَحِيطُ بِهَا الْأَشْجَارُ وَالْبُيُوتُ كَمَا الْاَسْوَارُ بِالْمَعْصَمِ.

وَيَتَعَرَّجُ السَّبِيلُ وَيَلْهَثُ مَكْدُودًا حَتَّى يَصِلَ إِلَى مُنْبَسِطٍ مِنَ الْأَرْضِ فَيَخْتَرِقُ الْبَلَدَةَ الْوَادِعَةَ وَيَمْضِي ضُعْدًا، حَتَّى جَاغٍ، لِيَنْحَدِرَ مِنْ ثَمَّ إِلَى تَنْوَرِينَ. وَيَجْتُمُ جَنُوبًا عَلَى رَمِيَّةٍ حَجَرٍ أَوْ أَكْثَرَ بِقَلِيلٍ دِيرُ مَارِ مَارُونَ عَنَّا، حَيْثُ شَرْبَلٍ، قَدِّيسُ لُبْنَانَ الَّذِي عَمَّتْ شَهْرَتُهُ الْعَالَمَ بِأَسْرِهِ.

رَمَتْ لِحَفْدُ عَنْ كَفِّهَا رِدَاءَ الشَّتَاءِ الرَّمَادِيِّ الْحَزِينِ وَارْتَدَتْ ثَوْبًا رَائِعًا مِنَ الْخَضَارِ الْفَارِحِ، خَضَارٍ تَرَاهُ كَأَحْلَى مَا يَكُونُ الْخَضَارُ. وَكَيْفَ أَدْرَتْ نَظْرَكَ تَطَالِعَكَ الْأَزْهَارُ تَرْنُو إِلَيْكَ بِأَعْيُنٍ عَاشِقَةٍ فَقَلْبُ الصَّخْرِ فِي لُبْنَانَ يُنْبِتُ بِخُورِ مَرْيَمَ ذَا الْأَعْيُنِ النَّاعِسَةِ. وَفِي حُقُولِ الْقَمْحِ تَطْلُ عَلَيْكَ هَيْبَةُ زَنَابِقِ مَارِ يُوسُفَ الْحَمْرَاءِ تُجَاوِرُ الرَّجْسَ الْعَسَلِيَّ ذَا الطُّيُوبِ وَالْاِقْحَوَانِ الْقِرْمَزِيِّ الَّذِي مِنْ دَمِ أَدُونِيسَ. تَتَخَلَّلُ بَحْرَ الْخَضَارِ هَذَا جُزَيْرَاتُ الْأَلْوَانِ الشَّتِيَّةِ يَحِطُّ عَلَيْهَا النَّظَرُ وَلَا يَرْضَى أَنْ يَنْسَلِخَ عَنْهَا إِلَّا بِضَعُوبَةٍ.

الهدوء والصَّمْتُ يُخَيِّانُ عَلَى الْبَلَدَةِ ، وَقَدْ حَدَبَتِ الشَّمْسُ إِلَى
الْبَحْرِ لِتَخْتَبِي وَرَاءَ الْأَفْقِ الْأَخْضَرَ الْبَعِيدِ . تَمُرُّ فَرَى هُنَا وَهَنَا بِصَيْصَ
أُسْرَجَةِ الزَّيْتِ تَرْتَجِفُ عَلَى الْجُدْرَانِ رَاسِمَةً أَشْبَاحًا أَنْيَسَةً تَنْهَضُ مَعَ
الْمَسَاءِ مِنْ أَعْمَاقِ الزَّمَنِ الْعَتِيقِ .

بَدَأَ بَيْتُ اسْطِفَانُ بُو هِيكَلُ بْنُ نَعْمَةٍ ضَوْءُ ، ذَاكَ الْمَسَاءِ ، غَيْرَ
بَاقِيِ الْيُوتِ إِذْ تَسُوْدُهُ حَرَكَةٌ غَرِيبَةٌ . لَا عَجَبُ فِي ذَلِكَ . إِنَّ زَوْجَتَهُ
تُعَانِي آلَامَ الْمَخَاضِ . وَقَدْ أَرْسَلَ الرَّجُلُ مِنْ أَسْتَدْعَى «دَايَةَ الْقَرْيَةِ»
لِتُشْرِفَ عَلَى عَمَلِيَّةِ الْوَضْعِ .

صَمَتَ الْبَعْضُ وَتَمَّتِ الْبَعْضُ الْآخَرُ : خَلَّصَهَا اللَّهُ بِالسَّلَامَةِ
فَالسَّلَامَةُ غَنِيْمَةٌ .

وَبَعْدَ قَلِيلٍ وَصَلَتْ «أُمُّ سَابَا» الدَّايَةَ بِقَامَتِهَا الْمُسْتَقِيْمَةَ كَالرُّمَحِ ،
بِالرُّغْمِ مِنْ أَعْوَامِهَا السَّبْعِينَ الَّتِي بَدَتْ أَثْلَامًا فِي وَجْهِهَا الطَّوِيلِ
الْمَمْطُوطِ «كَمِشْطَاحٍ» الْخَبْزِ . وَجْهٌ قَدِيمٌ يَبْدَأُ بِجِبَّةٍ فَسِيحَةٍ مُسْتَقِيْمَةٍ
تُسْتَقَرُّ فَوْقَ حَاجِبَيْنِ مَعْقُودَيْنِ يَحْمِيَانِ عَيْنَيْنِ مَزْهُوَّتَيْنِ حَادَّتِي السَّوَادِ
تُبْنِيَانِ عَنْ ذِكَاٍ وَنَظَرَةٍ ثَاقِبَةٍ إِلَى الْأُمُورِ ، يَتَوَسَّطُهَا أَنْفٌ دَقِيقٌ إِنْ دَلَّ
عَلَى شَيْءٍ فَعَلَى حَزْمٍ صَارِمٍ وَإِرَادَةٍ صُلْبَةٍ ، يَعْلُو ثَغْرًا رَقِيقًا كَوْرَقَةَ الْوَرْدِ
وَذَقْنٍ سَاخِرَةٍ .

تَنْتَقِلُ بِخَفَّةٍ ، فَالْعُمُرُ لَمْ يُفْقِدْهَا حَيَوِيَّتَهَا وَلَا تَزَالُ ، بِالرُّغْمِ مِنْ
شَيْخُوخَتِهَا ، تَتَّسِمُ بِمَسْحَةٍ لَا بِأَسٍ بِهَا مِنْ جَمَالٍ بَائِدٍ . خَفِيفَةُ الدَّمِّ ،

طَيِّبَةُ الْمَعَشَرِ، عَفِيفَةُ اللِّسَانِ تَحُبُّ الدَّعَابَةَ وَالشَّبَابَ وَالْمَرْحَ وَلَا تُطَيِّقُ أَنْ تَرَى وَجْهًا عَبُوسًا. أَبْرَزَ صِفَاتِهَا ثِقَتَهَا الْأَكِيدَةَ بِاللَّهِ وَبِنَفْسِهَا، هَذَا إِلَى جَانِبِ أَعْتِدَادٍ بِالذَّاتِ، فَهِيَ مِنْ أَشْهَرِ «دَايَاتِ» الْجَوَارِ. فَهِيَ ذَاتُ بَاعٍ طَوِيلٍ وَمَعْرِفَةٍ عَمِيقَةٍ بِفَنِّ التَّوْلِيدِ. كَيْفَ لَا وَقَدْ مَارَسَتْهُ أَعْوَامًا تَمْتَدُّ إِلَى زَمَنِ الصُّبَا، وَالْكُلُّ يَشْهَدُ لَهَا بِمَقْدُرَتِهَا الْفَائِظَةِ وَجُرْأَتِهَا عَلَى التَّعَامُلِ مَعَ أَصْعَبِ الْحَالَاتِ تَعْقِيدًا. هَذَا، وَلَهَا إِلَامٌ بَعْلِمِ الْفِرَاسَةِ، فَعِنْدَمَا تَسْتَشِيرُهَا حَامِلٌ عَنْ جِنْسٍ مَوْلُودِهَا تَتَمَيِّزُهَا بَعِيْنِي نَسْرٍ، فَإِنْ ابْتَسَمَتْ وَلَمْ تُجِبْ كَانَ الْمَوْلُودُ «صَبِيًّا» وَإِنْ أَنْفَرَجَتْ شَفَتَاهَا عَنْ عِبَارَةٍ مُبْهِمَةٍ كَقَوْلِهَا «الْمَهْمُ السَّلَامَةُ» كَانَ الْمَوْلُودُ «تَوْهَا». هِيَ لَا تَحُبُّ الْبَنَاتِ فَالْحُلْوَانَ الَّذِي تَقْبِضُهُ عَنْ كُلِّ وَاحِدَةٍ «بَشْلَكٍ» بَيْنَا حُلْوَانَ الصَّبِيِّ «لَبِرةٌ عَثْمَانِيَّةٌ ذَهَبًا» أَوْ «رِيَالٌ مَجِيدِيٌّ» عَلَى الْأَقْلَ مَعَ لَوْحِ صَابُونٍ وَكَمْشَتِي سَكَّرَ وَأَرْزَ.

* * *

لَمَّا دَخَلَتْ بَيْتَ اسْطِفَانَ بُوْهِكَلٍ سَأَلَتْهَا إِحْدَى النِّسْوَةِ

مَدَاعِبَةً:

— «يَا أُمَّ سَابَا، شَوْ بَدَّنَا نَجِيبَ الْيَوْمِ صَبِيٍّ يَمَّا بِنْتُ».

ابْتَسَمَتْ ابْتِسَامَةَ الْمُنْتَصِرِ الْوَائِقِ وَأَجَابَتْ:

— «إِلَيَّ بَاعَتُو اللَّهَ خَلْقَهُ كَامِلَهُ نَعْمَهُ زَايِدَهُ».

وأُمّ سابا تُعرف بهذا الاسم فقط ، وكأنّه ليس لها سواه . فقد نسي
النّاس أسمها القديم . وهي فخورة به ، لا ترضى عنه بديلا . فإنّ أبْنها
«سابا» وحيدٌ بين سبع أخوات . وهو «زينةُ شَباب الضيعة» كما يحلو لها
أن تردّد .

إنّها لا تعيش إلّا لتفرّح به وترى له البنين والبنات ، وهو لا يُقدّم
على الزواج حتّى تتقدّمه أخواته ، إذ من يتولّى مسؤوليّة الأسرة
ولاسيّما وأنّ أباه قد أصبح «مرحومًا»؟ فاهمّة همّتهنّ .

اجتمع معظمُ رجال القرية ذلك المساء أمّام بيتِ أسطفان
بوهيكل وجلّسوا على المصطبة ، فالولادةُ حدثٌ هامٌّ في القرية .
وأخذوا يتبادّلون أحاديثَ تناولت مواضيع شتى عن اسطفان وأسرته
والزّراعة والأسعار والمَواسم والسّياسة . وقليلًا ما كانوا يتناولون هذه
الشؤون الأخيرة أو يتلفّظون بأسماء الحُكّام العُتاة الظالمين ... وكان فنُّ
المعلوماتيّة لا يزال معدومًا . وحدهم المحظوظون من سُكّان المدن
يقرأون الصّحف والكتب الجديدة .

قال أبو طنّوس :

— منذ أن تولّى واصبا باشا متصرفيّة البلاد عام ١٨٨٣ بعد رسم
باشا ، وهو يستبدُّ بشؤوننا . فما إن قبض على مقاليد الحُكم حتّى شرع
في التبديل والعزل والصّرف والتّغيير في صفوف الموظفين ، على
هواه ، ودون مُسوّغ قانونيّ ، بحجّة أنّهم من أتباع سابقه .

فَأَجَابَهُ أَبُو فَارِسَ :

– نَعَمْ ، سَمِعْنَا أَنَّهُ اسْتَبْدَلَ جَمِيعَ أَصْحَابِ الْمَنَاصِبِ الْعُلْيَا بِاتِّبَاعٍ لَهُ ، تَأَلَّفَتْ مِنْهُمْ زُمْرَةٌ تَرَأَّسَهَا صَهْرُهُ كَوْبِلْيَانُ ، أَحَاطَتْ بِهِ وَتَقَوَّدَهُ إِلَى طَرَائِقِ الْإِسْتِبْدَادِ وَالظُّلْمِ وَالْأَحْتِيَالِ وَالسَّرْقَةِ ... تَدْخُلُ هُنَا أَبُو سَلُومٍ مُقْطَعًا :

– إِنَّ الرَّجُلَ ، عَلَى ذِمَّةٍ مِنْ يَقُولُ ، طَيِّبٌ وَعَاقِلٌ . وَلَكِنَّ صَهْرَهُ مِنْ سَفَلَةِ الْقَوْمِ .

فَقَالَ سَامِي :

– سَمِعْتُ أَنَّ وَاصِلًا لَيْسَ مِنْ أَهْلِ الْيَسْرِ ، وَأَنَّ كَوْبِلْيَانَ هُوَ الَّذِي زَيَّنَ لَهُ طَرِيقَ الْإِنْزِلَاقِ إِلَى مَهَاوِي الرِّشْوَةِ وَالتَّزْوِيرِ وَالْإِبْتِزَازِ . فَبَاسِمِهِ تَرْتَكِبُ أَبْشَعَ الْجَرَائِمِ .

فَقَالَ أَبُو طُنُوسَ :

– وَهَلْ كَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَنْجَرِفَ مَعَ تَيَّارِ صَهْرِهِ وَيُجَارِيَهُ فِي مَا يَرِيدُ أَنْ يَكُونَ ؟ لِمَاذَا لَمْ يَرُدِّعْهُ ؟ لِمَاذَا لَمْ يَكْبَحْ وَيَحْدِّثْ مِنْ أَعْمَالِهِ الشَّرِّيرَةِ ؟ أَلَيْسَ هُوَ سَيِّدُ الْبِلَادِ الْفَعْلِيِّ ؟

وَقَالَ أَبُو فَارِسَ :

– أَيْنَ عَيْنَاكَ ، يَا بَشِيرُ ، تَرِيَانُ مَا يَجْرِي فِي الْبَلَدِ الَّذِي أَحَبَبْتَهُ وَأَعْلَيْتَ شَأْنَهُ ، وَحَافِظْتَ عَلَى الْعَدْلِ وَالْأَمْنِ فِي رُبُوعِهِ ؟ لَقَدْ أَصْبَحَ ثِيْبًا فِي أَيْدِي الْأَشْرَارِ وَالْمُسْتَبَدِّينَ .

- إِنَّ سَيِّئَاتِ هَذَا الرَّجُلِ تَغِطِّي وَتَطْمُسُ بَعْضَ الْحَسَنَاتِ وَالْأَعْمَالِ الْعُمَرَانِيَّةِ الَّتِي قَامَ بِهَا وَنَفَذَهَا.

- مَاذَا فَعَلَ لِنَتَكَلَّمَ عَنِ الْحَسَنَاتِ. لَمْ يَتْرُكْ أَمْرًا يَسْتَحِقُّ الذِّكْرَ.

- لَا يَجُوزُ أَنْ نَغْمُطَ الرَّجُلَ حَقَّهُ وَإِنْ كُنَّا نَكْرَهُهُ. فَقَدْ عُنِيَ بِالْمَشَارِيعِ الْعُمَرَانِيَّةِ. وَمَا يَجْدُرُ ذِكْرُهُ تَشْيِيدُهُ سَرَايَ زَحْلَةَ، وَتَرْمِيمُهُ سَرَايَ بَعْدَهَا وَجَعْلُهَا مَقَرًّا لِلْحُكُومَةِ وَوَضْعُهُ الْحَجَرِ الْأَسَاسِيِّ لِسَرَايِ جُونِيهِ وَإِقَامَتُهُ بَعْضَ الْخَافِرِ عَلَى الطَّرِيقَاتِ لِتَأْمِينِ سَلَامَةِ الْمَارَّةِ وَشَقَهُ عِدَّةَ طَرِيقَاتٍ مِنْهَا طَرِيقُ نَهْرِ الْكَلْبِ جُونِيهِ وَإِنْشَاؤُهُ بِضْعَةَ عَشَرَ جِسْرًا وَعَبَّارَةً فِي مُخْتَلَفِ أَنْحَاءِ لُبْنَانَ.

وَقَدْ أَنْصَرَفَ إِلَى جَانِبِ هَذَا كُلِّهِ إِلَى تَحْسِينِ مَالِيَّةِ الْجَبَلِ بِإِقْرَارِهِ رُسُومًا طَفِيفَةً عَلَى الْأَسْتِنَاطِاقِ وَتَسْجِيلِ صُكُوكِ الْبَيْعِ وَالرَّهْنِ وَالْكَفَالَاتِ وَسَائِرِ التَّعْهُدَاتِ.

- وَهَلْ تُعْتَبَرُ هَذِهِ الْأَعْمَالُ مَجِيدَةٌ؟ يَا لِلْأَعَاجِيبِ! وَمَا قَوْلُكَ عَنِ هَيْمَنَةِ صَهْرِهِ؟... مَا هِيَ حَسَنَاتُهُ هُوَ؟ أَنْسِيَتْ أَنْ الْقُضَاةَ فِي عَهْدِهِ، أَضْحَكُوا الْأَعْيَبَ مَسْحُورَةً بَيْنَ يَدَيْهِ؟ أَلَمْ يَكُنْ يُقِيلُ مَنْ يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ مَنْ يَشَاءُ مِنْهُمْ دُونَ الرُّجُوعِ إِلَى ذَلِكَ الْمُنْتَصَرِفِ الضَّعِيفِ الْمَسْلُوبِ الْإِرَادَةِ؟

- هَذَا صَحِيحٌ، فَإِنَّ هَمَّ كُوبِلْيَانِ فِي الْحَيَاةِ انْخَصَرَ فِي أَمْرٍ وَاحِدٍ أَلَا وَهُوَ جَمْعُ الْمَالِ بِكُلِّ مَا تَفَتَّقَ عَنْهُ عَقْلُهُ وَخَيَالُهُ مِنْ أَحَابِيلِ وَطَرَائِقِ أَحْتِيَالِيَّةٍ.

فَإِذَا شِئْتَ أَنْ تُسَيِّطِرَ عَلَى أَرْضٍ وَمُتَمَلِّكَاتٍ جَارِكَ فَمَا عَلَيْكَ سِوَى
أَنْ تَرَشِّيَ كَوْبِلِيَانِ، وَإِذَا شِئْتَ أَنْ تَسْتَحْصِلَ حُكْمًا عَلَى خَصْمٍ لَكَ
فَأَذْهَبْ إِلَى كَوْبِلِيَانِ، فَتَنَالْ مَا تَشَاءُ قِبَالَ مَا يَفْرِضُهُ عَلَيْكَ مِنْ مَالٍ.
وَقَدْ تَنَاولَتْ أَلْسُنُ النَّاسِ نَوَادِرَ عِدَّةٍ، عَلَى غَايَةِ مِنَ الطَّرَافَةِ. وَتَقَعُ
تَبَعُهُ هَذِهِ الْمَظَالِمُ لَيْسَ عَلَى كَاهِلِ كَوْبِلِيَانٍ وَحْدِهِ بَلْ تَرْسُو عَلَى زِمْرَةٍ
عَاوَنْتَهُ وَتَرَلَّفَتْ لَهُ وَسَهَّلَتْ أَمَامَهُ طَرَائِقَ النَّصَبِ وَالْأَحْتِيَالِ وَالتَّظْلُمِ فِي
سَبِيلِ الْوُصُولِ إِلَى مَآرِبِهَا الْخَسِيسَةِ.

— هَاتِ ارْوِلْنَا بَعْضَ حَوَادِثِ ابْتِزَازِ أَمْوَالِ الْمَوَاطِنِينَ فِيهَا عِبْرَةٌ
وَتَفْكُهُةَ.

— إِنَّهَا أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَى سَأَكْتَفِي بِقِصِّ اثْنَتَيْنِ مِنْهَا كَمَا ذِجَ
لِلتَّظْلُمِ الَّذِي يُصِيبُ بِلَادَنَا عَلَى أَيْدِي هَؤُلَاءِ الْعَتَاةِ الظَّالِمِينَ الَّذِينَ
يُرِيدُونَ أَنْ يُذَوِّبُوا لِبَنَانَنَا فِي الدَّوْلَةِ التَّرْكِيَّةِ الْمَرِيضَةِ.
— كُلْنَا آذَانُ صَاغِيَةٍ.

— مَا أَكْرَهَ أَنْ تَصْبِحَ مَآسِينَا فُكَاهَاتٍ وَنَوَادِرَ نَتْسَلَى بِهَا.
قِيلَ إِنَّ أَحَدَ مَوْظِفِي هَذَا الْعَهْدِ أَقَامَ مَأْدُبَةً لِنَسِيبِ لَهُ، فِي دَارِهِ.
وَكَانَ مِنْ جُمْلَةٍ مَا قُدِّمَ لَهُ مِنْ أَطْيَابِ الطَّعَامِ لَحْمُ الدَّجَاجِ الْبَلَدِيِّ.
وَكَانَ هَذَا الصَّنْفُ مِنْ مَفَاخِرِ أَطْعِمَةِ الْأَثْرِيَاءِ وَحَدَّاهُمْ.
وَصَادَفَ أَنْ بَقِيَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ الدَّجَاجِ فَاحْتَفَظَتْ بِهِ زَوْجَةُ
الْمَوْظِفِ. وَفِي الْيَوْمِ الثَّانِي جَمَعَتْ بَعْضًا مِنَ اللَّحْمِ وَأَصَافَتْ إِلَيْهِ

رَغِيْفًا مِنَ الْخُبْزِ وَأَرْسَلْتَهُ إِلَى زَوْجِهَا فِي السَّرَايِ لِيَتَنَاوَلَهُ ظَهْرًا. وَبَيْنَمَا الرَّجُلُ يَأْكُلُ طَعَامَهُ دَخَلَ عَلَيْهِ أَحَدُ رِجَالِ زُمَرَةِ كَوْبِلْيَانَ. لَمْ يَنْبَسْ هَذَا بِبِنْتِ شَفَةِ، بَلْ أَنْصَرَفَ بِسُرْعَةٍ وَنَقَلَ خَبَرَ لَحْمِ الدَّجَاجِ إِلَى كَوْبِلْيَانَ.

وَقَبْلَ أَنْ يُنْهِيَ الْمَسْكِينُ غَدَاءَهُ كَانَ فِي الْبَابِ حَاجِبٌ يَدْعُوهُ إِلَى مُقَابَلَةِ كَوْبِلْيَانَ. امْتَثَلَ الْمَوْظُفَّ الْمَسْكِينُ لِلْأَمْرِ. وَمَا إِنْ أَصْبَحَ بِحَضْرَتِهِ حَتَّى أَخَذَ يَتَأَمَّلُهُ وَأَرْتَسَمَتْ عَلَى تَقَاطِيعِ وَجْهِهِ بَسْمَةٌ سَاخِرَةٌ تَقْطَعُ الْعِظْمَ. وَقَالَ:

— هَا أَنْتَ قَدْ أَصْبَحْتَ مِنَ الْأَغْنِيَاءِ.

فَفِيهِمُ الْمَسْكِينُ مَعْنَى هَذَا الْقَوْلِ الْمَقْتَضِبِ وَأَنْسَحَبَ مَفْكَرًا. لَمْ يَمُضْ يَوْمَانِ عَلَى ذَلِكَ الْحَدَثِ حَتَّى جَاءَهُ ذَلِكَ الَّذِي وَشَى بِهِ وَقَالَ بِحُبِّثٍ وَدَهَاءٍ:

— أَنْتَ تَعْرِفُ، يَا صَدِيقِي، مَا أَكُنُّ لَكَ مِنْ مَحَبَّةٍ خَالِصَةٍ وَأَتَمَنَّى لَكَ مِنْ خَيْرٍ، وَلِهَذَا تَرَانِي هُنَا. عَلِمْتَ مِنْ أَحَدِ الْمُقَرَّبِينَ مِنْ كَوْبِلْيَانَ، إِنَّهُمْ يَفْكُرُونَ بِتَعْيِينِ آخِرِ مَكَانِكَ.

— مَكَانِي؟... وَلِمَاذَا؟ أَنَا رَجُلٌ فَقِيرٌ الْحَالُ...

— لَا... أَنْتَ رَجُلٌ غَنِيٌّ لَا يَأْكُلُ غَيْرَ لَحْمِ الدَّجَاجِ، تَسْتَطِيعُ أَنْ تَعِيشَ مِمَّا جَمَعْتَهُ مِنْ أَمْوَالِ الشَّعْبِ. فَمَا لَكَ وَلِوُظَائِفِ الدَّوْلَةِ.

– ولكن أؤكد لك أن الذي أبلغ كويليان هذا الأمر مُخطئ.
 – هذا شأن خارج عن إرادتي. نقلت إليك ما سمعت فتدبر أمرك
 كما تشاء. دَع هذا الكلام سرًّا بيننا فإذا درى كويليان، كان لي شأن
 معه.

– أشكرك، يا صديقي، على ما أبديت نحوي من مودة واهتمام.

* * *

أدرك الموظف ما عناه الواشي الحبيث، فأخذ من جيبه مبلغًا من
 المال كان قد ادّخره يستعين به على الحياة بعد صرفه من الخدمة
 وكلفه بإيصاله إلى كويليان. وهكذا نجا من الصِّرف.

– يا لها من قصّة طريفة، هاتِ أتحنّنا بسواها.
 – نزلت إلى بيروت، مُنذ أشهر قليلة، وبِت في أحد خاناتها.
 سمعتُ نادرةً أخرى، إن دلت على شيء فعلي مدى خِساسَةِ الرَّجل
 وشدّة جشعه وسعة حيلته. وهي لا تقل طرافةً عن الأولى.

– ماذا تنتظرُ لنقلها إلينا، ففي الحديث عِبْرَةٌ لقوم يعقلون.
 ورأى على المُجتمعين صمتٌ مهيب بينما بدأ الموظف قصّته
 الجديدة قال :

– كان مدير إحدى النواحي متيمًا بحبّ فتاة رائعة الجال اسمها
 لطيفة. اتّصل خبره بأحد رجال زمرة كويليان فكتّم الأمر وراح

يَتَحَيَّنُ الْفُرْصَةَ لِلإِيقَاعِ بِالْمُدِيرِ وَأَبْتَزَّازَ بَعْضَ الْمَالِ مِنْهُ. وَبَعْدَ مَضِيِّ شَهْرٍ مِنَ الزَّمَنِ صَادَفَ أَنْ نَزَلَ الْمُدِيرُ الْمَذْكُورَ إِلَى سَرَايِ الْحُكُومَةِ، فِي بَعْدِهَا، لِمُقَابَلَةِ «تَيْنِ لِبْنَانِ» كَوْبِلْيَانِ. فَاتَّصَلَ الْوَاشِي بِهَذَا الْآخِرِ وَنَقَلَ إِلَيْهِ خَبَرَ عِلَاقَتِهِ بِلَطِيفَةِ. فَلَمَّا دَخَلَ الْمَدِيرَ عَلَيْهِ اسْتَقْبَلَهُ بِبَشَاشَةٍ خَبِيثَةٍ مُصْطَنَعَةٍ سَرَّهَا قَلْبُ الرَّجُلِ. تَنَاولَ الْحَدِيثَ الشَّأْنَ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ أَتَى إِلَى بَعْدِهَا. وَفَجْأَةً قَالَ كَوْبِلْيَانِ:

— صَدَرَ الْيَوْمَ أَمْرٌ لَجَنَابِكُمْ، يَنْفِي امْرَأَةً مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي تُقِيمُونَ فِيهَا. فَهَلْ نَفَذْتَهُ؟

— لَمْ يَصِلْنِي أَمْرٌ بِهَذَا الْمَعْنَى، يَا سَيِّدِي، وَلَكِنْ أَتَسْمَحُ لِي أَنْ أَسْأَلَ مِنْ هِيَ هَذِهِ الْمَرَأَةِ.

— إِنَّكَ تَعْرِفُهَا جَيِّدًا، يَا جَنَابَ الْمَدِيرِ.

— أَعْرِفُهَا؟ وَمَنْ تَكُونُ؟

— هَلْ يَذْكُرُكَ اسْمُ «لَطِيفَةِ» بِشَيْءٍ؟

— لَطِيفَةُ؟

وَعَلَا الْأَصْفَرَارَ وَجْهَ الْمَدِيرِ وَأَخَذَتْهُ رَجْفَةٌ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُخْفِيَهَا. تَسَارَعَتْ نَبْضَاتُ قَلْبِهِ وَلَمْ تُعَدِ الدُّنْيَا تَتَسَّعُ لَهُ. وَقَالَ بِمَا يُشْبِهُ الْهَمْسَ:

— وَمَا ذَنْبُهَا، يَا سَيِّدِي؟ إِنَّهَا...

- لا تَصْطَنِعِ التَّجَاهُلَ. إِرْتَبَاكَ هَذَا يَعْنِيكَ مِنَ الْجَوَابِ. إِنَّ شكاوى عديدة وردتنا بحقها وحقك. إنها امرأة فاسقة شريرة، استولت على لُبِّكَ، فَأَصْبَحْتَ أَلْعُوبَةً بَيْنَ يَدَيْهَا. وقد بلغنا أنك تصرف معظم وقتك في منزلها، مُهْمَلًا شُؤْنَ النَّاسِ. إِنَّا لَمْ نَشَأْ عَزْلَكَ فِي الْوَقْتِ الْحَاضِرِ، بَلْ اكْتَفَيْنَا بِتَدْبِيرِ تَنَاوُلِ إِبْعَادِ تِلْكَ الْمَرْأَةِ عَنْكَ، آخِذِينَ بَعَيْنِ الْأَعْتَابِ الْخِدْمَاتِ الْجَلِيلَةَ الَّتِي سَبَقَتْ وَقَدَّمَتَهَا لِلدَّوْلَةِ الْعَلِيَّةِ.

- هَلْ صَدَرَ الْأَمْرُ، يَا سَيِّدِي؟
- كَلَّا، وَلَكِنْ لَنْ يَطُولَ الْوَقْتُ. سَأَسْلَمُكَ إِلَيْهَا بِالْيَدِ، قَبْلَ الْعُودَةِ إِلَى نَاحِيَتِكَ.
أَدْرَكَ الْمُدِيرَ الْحِيلَةَ الْمُدْبِرَةَ، وَلَمْ يُخَفِّهِ الدَّوَاءُ النَّاجِعَ لِمَنْعِ الظَّلَامَةِ. وَلِلْحَالِ أَخَذَ مِنْ جَيْبِهِ ضُرَّةَ تَحْوِي خَمْسِينَ ليرة عثمانية ذهبًا وَقَدَّمَهَا لِلتَّيْنِ.

- اذْهَبِ الْآنَ بِأَمَانٍ، فَقَدْ أَنْسَيْتَنِي اسْمَ لَطِيفَةٍ وَقَصَّتِكَ مَعَهَا. فَأَنْتَ مُوظَّفٌ أَمِينٌ وَنَشِيطٌ وَإِنِّي أَقْنَتُ الْآنَ كَذِبَ الْوَاشِيِ الْحَقِيرِ. وَهُنَا أَعْلَنْتُ «أُمَّ سَابَا» بَرَعْرَدَةٍ دَاوِيَةٍ إِنَّ الْمَوْلُودَ ذَكَرَ. وَانْهَمَكَتْ بِغَسْلِهِ بِالْمَاءِ وَالْمِلْحِ وَرَشَّتْ جَسَدَهُ الصَّغِيرَ بِالرَّيْحَانِ وَوَضَعَتْهُ فِي الْقِمَاطِ. وَلَمَّا انْتَهَتْ رَفَعَتْهُ بَيْنَ يَدَيْهَا فَوْقَ رَأْسِهَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مُتَوَالِيَةٍ، وَذَلِكَ

خارج عتبة البيت لحمايته من «الكبسة». ثم سلمته إلى والده الذي نظر إليه بحنان وباركه وأعادته إلى أمه. وأخذت «أم سابا» تردد «محبة المسيح كيريا ليسون». وردد الحضور قولها.

انتشر خبر الصبي الجديد بسرعة في القرية، فتراكض جميع صبياتها لنيل «الحلوان» كزبرة وزبيب وتين وملبس. وكان اللبنايون يؤمنون أن توزيع هذا «الحلوان» ضروري جدًا للحفاظ على حياة الوليد وغده ونجاحه المستقبلي.

وبدت النسوة في حركة غريبة، فهن يعددن المغلي لتوزيعه على بيوت القرية كما كانت تفرض عادات تلك الأيام.

وأقام اسطفان «وقعة» دعا إليها كاهن الرعية وجميع الأقارب والأصدقاء، على شرف خلاص الأم والمولود الجديد.

وأقبل أهل القرية تباعاً يهنئون والديه قائلين: «مبارك ما إجاكم». ويُقال إن هذه العبارة التقليدية تلفظت بها أليصابات مهتة العذراء مريم عند ولادة السيد المسيح.

وهنأت النسوة الأم فكانت كل واحدة تقول لها:
- «لِكِ الهنا. إنت جيت وإنت تربي. الحمد لله ع سلامتك».

* * *

ودُعِيَ المولود يوسف.

يوسف

«فقال لهم بطرس توبوا وليعتمد كل واحد منكم
بأسم يسوع المسيح لمغفرة الخطايا فتناولوا موهبة
الروح القدس». أعمال الرسل ٢: ٣٨

كان يوسف رابع إخوته نعمة الله وسركيس وهيكلي. وقد سر قلب
والديه لمجيئه ورغباً منذ السّاعة الاولى أن ينشأ ثمرة صالحة. وعبر
الرّجل عن فرحته بإعطائه الدّاية «ريالاً مجيداً» وتوزيعه على أولاد
القرية حلواناً سخياً.

وفي اليوم الثامن للولادة، أي في ٥ آذار ١٨٨٧ حُمل الصبي
إلى كنيسة السيّدة الملائكة لدار والدّيه لتقبّل سرّ العِماد المُقدّس
بمقتضى الشريعة الكنسيّة والعادات المتبعة يومذاك.

فأت عرابته مريم زوجة طُنوس شلي وحملتُه إلى الكنيسة ورافقها
والده والعرّاب طُنوس البدوي وجُمهور الاقرباء والاصدقاء. وتقاطر
أولاد القرية فتَيّاناً وفَتَيّات لحُضور حفلة العِماد.

وكان للعِمَاد أهمية خاصة عند اللُّبْنَانِيِّينَ إذ إنَّ المعتمد يُصْبِحُ أَبَنَ الله وَيُغْسَلُ من أدران الخطيئة الأصلية ويدخل كنيسة المسيح.

كَانَ الجميعُ فرحين ذلك اليوم. فالقرية بجميع أفرادها أسرة واحدة تشترك وتتعاون في جميع ظروف الحياة من أجل الخير العام ورفاهة المجتمع وازدهاره عن طريق توثيق الترابط بين أفرادها.

وما إنَّ وُصِّلَ رتلهم إلى الكنيسة حتى وَجَدَ الخوري جرجس فاضل يرتدي الثياب البيعية وينتظرهم عند باب الكنيسة. تقدّمت منه العرّابة فأخذ الولد من بين يديها وأدخله إلى الكنيسة وهو يرتل المزمور ١٠٣.

بدأ الكاهنُ الرتبة يعاونه بعض أبناء الضيعة، ولم يعد يُسمع سوى أصوات ترتفع بالتسبيح وتُوحى بالخُشوع وتدفع إلى الصلاة والتوبة والارتفاع بالنفس إلى مراقي بارئ الأكوان.

بعد قليل التفت الكاهن إلى العرّاب وسأله:

— ماذا تريدون أن تسمّوه؟

— يوسف.

وعندئذٍ أخذ قليلاً من الملح ووضعه في فم الصّغير وهو يقول:

— اقبل يا يوسف ملح الحكمة الذي يصيرك حكيماً.

ثمّ بارك الولد وبدأ برشّ الماء على رأسه وقال :
- أنا أعمدك، يا يوسف، باسم الآب والابن والروح القدس.
ودهنه بزيت الخلاص.

وزع أحد الحُضور الشُّموع على الحاضرين فأضِئَتْ ومشى جمهور
الأهلين يتقدّمهم الكاهن، داخل الكنيسة وهم يرتلون «وإن كان
جسمك». وكانت الأجراس تَقْرَع قَرَحًا.

توجّه الكاهن إلى والدِ الطّفل والإشبينين والأقارب قائلاً:
- «عمادي مباركه. الله يعيش ويكون ثمرة صالحة في خدمة أهله
وطونه».

- «الله يديمك، يا أبانا، تعيش وتعمّد ولاد ولادو».
خرج النَّاس من الكنيسة وعادُوا إلى بيتِ اسطفان للاحتفال
بهذه المُناسبة السَّعيدة.

ولمّا وصلوا تناولتِ الطّفلَ أمُّه وقبلته بحنان:
- أرجو، يا بُنيّ، أن تكون حبة الحِنْطة المُختارة، وسَعَادَتِي
تكتَمِل إذا رأيتك راهبًا.
وردّد والدّه:
- وهذا أُملي أيضاً.

كَانَتْ الْفَرَحَةُ عَامَّةً، ذَلِكَ الْيَوْمَ. وَمُدَّ سِهَاطُ الطَّعَامِ وَتَرَأَّسَهُ الْخُورِيُّ جَرَجَسَ. وَكَانَ اسْطِطْفَانُ قَدْ ذَبَحَ خُرُوفًا وَأَعَدَّتِ النَّسُوءُ الْمَأْكَلَ اللَّبْنَانِيَّةَ الطَّيِّبَةَ مِنْ قَصَبَةِ نَيْئَةٍ وَكَبَّةَ وَلَحْمٍ مَشْوِيٍّ وَضَلَعَ مَحْشَوًّا إِلَى مَا هُنَالِكَ مِنْ أَصْنَافٍ طَيِّبَةٍ. وَأَدِيرَتِ أَكْوَابُ الْعَرَقِ وَالنَّبِيدِ وَالنَّقْلَ عَلَى الْحَاضِرِينَ.

وَحَدَّاهَا خَرِيسْتِينَا الْبَدْوِي جَلَسَتْ مَفْكُرَةً فِي أَحَدِ أَرْكَانِ الْبَيْتِ. «سَأُصَلِّي كَثِيرًا مِنْ أَجْلِهِ، كَيْ يَتَّجِهَ بِكُلِّيَّتِهِ إِلَى خِدْمَةِ اللَّهِ. وَهَلْ فِي الدُّنْيَا مَا هُوَ أَشْرَفُ مِنْ حِرَاثَةِ كَرَمِ الرَّبِّ؟»

شَرَدَتْ الْمَرْأَةُ بِعَقْلِهَا عِبْرَ الْأَيَّامِ وَرَأَتْ وَلَدَهَا يَوْسُفَ شَابًّا يَرْتَدِي الْإِسْكَيمَ الرَّهْبَانِيَّ، سَاجِدًا فِي كَنِيسَةِ السَّيِّدَةِ يَصَلِّي.

لَمْ تَكُنْ فِي ذَلِكَ الْحَيْنِ تَسْمَعُ مَا يَدُورُ حَوْلَهَا مِنْ صَخَبٍ وَمَا يَقُولُهُ الْآخَرُونَ مِنْ أَدْعِيَةٍ وَتَمَنِّيَّاتٍ. وَلَمْ تُعُدْ إِلَى وَعِيقِهَا إِلَّا عِنْدَمَا وَجَّهَ إِلَيْهَا الْخُورِيُّ جَرَجَسَ كَلَامَهُ:

— أَنَا مُرْتَاحُ الضَّمِيرِ، فَيَوْسُفُ بَيْنَ أَيْدٍ مُبَارَكَةٍ. مَتَّعَهُ اللَّهُ طَوِيلًا بِحَنَانِكُمَا وَعَطْفِكُمَا لِتَرْبِيَايَاهُ عَلَى مَخَافَةِ الرَّبِّ.

— بَارَكَ اللَّهُ فِيكَ، يَا مُحْتَرَمَ. وَأَخَذَ النَّاسُ يَنْصَرِفُونَ رَتَلًا إِثْرَ رَتَلٍ وَلَا سِيَمًا وَقَدْ انْقَضَى الْهَزِيعُ الْأَوَّلُ مِنَ اللَّيْلِ.

الله يراني

«عيننا الربّ في كلّ مكان ترقُّبان الأشرار
والأخيار»
الأمثال ١٥: ٣

كان يوسف ينمو ويكبر تحت أنظار والديه مدلاً ناعماً بعطف
الجميع فهو بنيامين الأسرة.

وما إن أصبح بمقدوره النطق والتحرك حتّى أخذت والدته تجلس
إليه كلّ مساء وتمسك بيده الصّغيرة وتدرّبه على رسم إشارة الصّليب
المباركة وترديد الصّلاة الربّيّة والسّلام الملائكيّ ووصايا الله
والكنيسة. وهي لا تغضب إن أخطأ بل تبتسم له وتعيد الكرّة مرّة تلو
المرّة بصبر القديسين وأناهم. لم يُبدِ الولد مرّة مللاً، بالرّغم من صغر
سنّه وعدم إدراكه لمعاني ما يردّد، بل يُقبل على أمّه بكلّ جوارحه
ويُلحّ عليها كي تُعلّمه الصّلوات وحقائق الدّين المسيحيّ.

وبعد ذلك أخذ الوالدان التقيان يصطحبانه إلى الكنيسة لحضور الذبيحة الإلهية.

وكانت تلك الأسرة المباركة تجتمع كل مساء وتسجد أمام المذبح الصغير الذي أقامته في البيت لتلاوة السُبُحَة وصلاة المساء وترنيم بعض الاناشيد الكنائسية.

هكذا فتح يوسف عينيه على التقوى والبر والقداسة تحيط به فعاشها في قلبه وأصبحت الصلاة جزءاً من ذاته وغاية لحياته. وقد مآل منذ نعومة أظفاره إلى العزلة والصمت والانفراد. فكان يجد السلام والاطمئنان في الوحدة وينتشي بها إذا كانت تتيح له فرصاً ومجالات للارتفاع بقلبه وأفكاره إلى الخالق والاتجاه إليه بكل جوارحه. إنه يشعر دوماً بأشتياق إلى عظمته تعالى. «عندما أفكرُ فيك، يا إلهي، يتدفقُ الإيمان في متاهات أفكاري، وتنهمرُ المحبة سَيْلاً في مطاوي قلبي ويلفني الرجاء في أن أتجد بك وأحيا من أجلك. فالدُّنيا وكل ما فيها إلى زوال ولا دائم في السماء وعلى الأرض سواك».

لم يفكر بمخالطة من كان من جيله واللعب معهم في ساحة القرية أو تحت سنديانة السيدة، بل كان يفضل البقاء في البيت لمُعَاوَنَةِ أمه في بعض أَعْمَالِها أو للانصراف إلى التأمل وتلاوة السُبُحَة بخُشُوعٍ وانسحاق قلب.

كم كان يجدُّ في ترديد الصَّلوات من غِبْطَةٍ وراحة وسَعَادَةٍ!
حقاً، إِنَّ يوسُفَ غرَسَ عَجِيبَةً في بُسْتانِ الرَّبِّ! حقاً إِنَّه حَبَّةُ
الحِنْطَةِ الْمُخْتَارَةِ.

أَشْرَفَتْ أُمُّهُ خريستينا البدويَّ على تَرْبِيَّتِهِ وتنشِئَتِهِ على أُسُسٍ
مَتِينَةٍ، مشربةً بقداسة الروح والجسد. وقد أَرْضَعَتْهُ مع الحَلِيبِ مَحَبَّةً
اللهِ والقَرِيبِ ونَثَرَتْ في تربةِ تلكِ النَّفْسِ الطَّيِّبَةِ بُزُورَ الشَّائِلِ السَّامِيَةِ
التي تُسَاعِدُ الإنسانَ على الوُصُولِ إلى هدفه.

كَانَ البَيْتُ مَدْرَسَةً يوسُفُ الأُولَى، فتعلَّم بالمِثْلِ كُلِّ ما هُوَ سامٍ
وفاضل.

فوالِدُهُ رَجُلٌ عامِلٌ، هادئٌ الطَّبعِ، دافئٌ اللِّسانِ، لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ
يَوْمًا غاضِبًا ولم يَسْمَعْهُ أَحَدٌ متذمِّرًا أو شاتِمًا، يعيشُ مع زَوْجَتِهِ حَيَاةً
طَرِيَّةً، ناعِمةً، لا يُعَكِّرُ صَفْوَهَا مُعَكِّرٌ.

عندما يمدُّ راحتيه إلى الأرض ينبجسُ الحَيْرُ، وترتسم تقاسيمُ
وجهه في كُلِّ حَبَّةِ ترابٍ، وينسابُ صوتُ مِنكاشه مع كُلِّ هَمْسَةٍ ورقةٍ
توتٍ واخضرار حَبَّةِ زَيْتُونٍ.

وجوده في لحفد شمس محبَّةٍ في عتمة دياجير الحقد والأنانية
والرياء. ما إن تسابَّ هذه الأفاعي السَّامة من أوجارها حتَّى يتعرَّضَ
لها ويتغلَّبَ عليها بقوة حَجَّتِهِ وصدق محبَّتِهِ وأمانةٍ وداعته. سحقَ كُلِّ

شَرَّ في لحفد وانتَصِر على الحُصومات، وجمَعَ الأُصداد وقَرَّب بين القلوب المتنافرة. كان يَرَأُبُ الصُّدوع التي تحدُّها الخِلافات ويصل ما انفصل ويعيد حبل المودَّة إلى ما كان عليه.

كان تأثير خريستينا بالغاً وعميقاً في حياة الأسرة، وقد عَناها ناپوليون حين قال: «إِنَّ تِلْكَ الَّتِي تَهْزُ السَّرِيرَ بِمِمينها تهْزُ العالَمَ بيسارها». فلحفد بإثرها تحترم وتُحِبُّ هذه الاسرة وتتخذها مِثَلاً للوفاق والاتحاد والحكمة والتَّقوى .

في عيني خريستينا كلُّ سحر البراءة والطُّهر. وفي جَمالها كلُّ جمالِ لبنان. وفي قلبها نسائم طريَّة تبهر كيف اتجهت إلى دنيا الامومة بجنانها وحديبها وتضحيتها. كانت تلك المرأة مثالَ الأمِّ الحقيقية التي تعرف كيف تُدير بيتها وتربي أطفالها تسعة أشهر قبل أن يولدوا. أدركت أهمية دورِ الأمِّ في نشأة أسرتها نشأةً صالحةً وتربيتها «في خوف الله». وقد حَصَرَتِ أَهْتمامها، كلَّ أَهْتمامها، براحة زوجها، ومشاركته أفراحه وهمومه وخدمة أسرتها. كانت طيلة حياتها مثال الزوجة الفاضلة والأمِّ المثالية والمرأة المؤمنة التقية.

أخذت الأيَّامُ تُسرِع في دورانها كأنَّ الشمس جُنَّت في مُلكها واختَصَرَت طريقَ مسارها. وما أسرع ذوبان السنين في جدول الماضي! وما أقصر عمر الإنسان!

كان يوسف يردّد دائماً بينه وبين نفسه عبارة «الله يراني».

«الله يراني في كلِّ آن، فإنَّ أَرْتَكَيْتِ الإِثْمَ، فَإِلَى أَيْنَ أَهْرُبُ؟ عَيْنَا الرَّبِّ تَحْرِقَانِ الْمَسَافَاتِ، وَحُجُبُ الظُّلَامِ تَمْرُقَانِ، فَلَا تَقُومُ فِي وَجْهِ الرَّبِّ سُدُودٌ، وَلَا تَمْنَعُهُ عَنِ الرُّؤْيَا حَوَاجِزُ أَوْ حُدُودٌ. قُدْرَتُهُ لَا مَتْنَاهِيَةَ كَمَحَبَّتِهِ وَعَدْلِهِ، وَهُوَ يَجْلُو أَسْرَارَ الْقُلُوبِ وَيَهْتِكُ أَسْتَارَ الْأَفْكَارِ، يُعَرِّي الْأَشْرَارَ وَيَكْشِفُ عَوْرَاتِهِمْ، وَيَدْعُو الْجَمِيعَ لِتَأْمُلَ آيَاتِهِ الرَّائِعَاتِ فِي الطَّبِيعَةِ الَّتِي أَضْفَى عَلَيْهَا مِنْ جَمَالِهِ جَمَالاً، وَمِنْ عُذُوبَتِهِ عُذُوبَةً، وَمِنْ رَحْمَتِهِ رَحْمَةً، وَمِنْ طَهْرِهِ طَهْراً، وَمِنْ قُدْرَتِهِ قُوَّةً. يَدْعُو الرَّبُّ الْجَمِيعَ، مِنْ خِلَالِ صَنَائِعِ يَدَيْهِ، إِلَى نَشْوَةِ التَّبَصُّرِ وَالتَّأْمُلِ. فَلْنَصْخُ عِنْدَمَا يَدْعُونَا الشَّرُّ: «الله يراني». لِنُطْلِقْ عِبُودِيَّةَ الْمَادَّةِ وَاسْتِبْدَادَهَا وَعِبُودِيَّةَ اللَّذَّةِ، وَعِبُودِيَّةَ الْغَرِيزَةِ، وَعِبُودِيَّةَ الشَّرِّ وَسَيِّطَرَتِهَا، وَنَرْتَفِعْ بِقُلُوبِنَا وَعِيُونِنَا إِلَى الرَّبِّ خَالِقِنَا. «الله يراني». لَا أَطْلُبُ مِنْكَ، يَا رَبِّي، كُلَّ يَوْمٍ أَعْجُوبَةٌ كَيْ أَصْرُخَ إِلَيْكَ خَاشِعاً: آمَنْتُ بِكَ، يَا رَبِّي».

أَلَيْسَتْ هَذِهِ الْخَلِيَّةُ الصَّغِيرَةُ الَّتِي تُوَلِّدُ وَتَلِدُ وَتَحْيَا وَتُتَاخَلُ فِي سَبِيلِ الْعَيْشِ، قَبْلَ أَنْ تَمُوتَ وَتَنْحَلَّ، وَالَّتِي مِنْهَا يَتَرَكَّبُ الْجَسَدُ الْمَادِّيُّ، أَعْجُوبَةٌ؟

أَلَيْسَتْ الشَّمْسُ الَّتِي لَوْلَاهَا لَمَّا أَبْصَرْتَ عَيْنَانِ نَوْراً، وَلَا تَحَرَّكَتِ يَدَانِ بِإِشَارَةٍ، وَلَمَّا أَفْرَخَ نَبَاتٌ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا كَانَتْ حَيَاةٌ فِي

الكَوْنِ، عَجِيبَةٌ؟ أَلَيْسَتْ الْكَوَاكِبُ الَّتِي تَدُورُ فِي مَفَاوِزِ الْفُضَاءِ
الرَّحْبِ عَجِيبَةٌ؟ أَلَيْسَتْ النَّوَاةُ الصَّغِيرَةُ الَّتِي نَدْفِئُهَا فِي التَّرَابِ،
فَتَنْبِتُ وَتَنْمُو وَتَغْدُو بَعْدَ حِينٍ شَجَرَةً بَاسِقَةً، عَجِيبَةٌ؟

فَلَوْ رَدَّدَ كُلُّ إِنْسَانٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ، مَا كَانَ يُرَدِّدُهُ يَوْسُفُ
لَا نَمْحَى الشَّرَّ عَنْ وَجْهِ الدُّنْيَا وَسَادَ السَّلَامُ الَّذِي نَنْشُدُ بَيْنَ الْبَشَرِ.

عَمَرُ الْإِنْسَانِ قَصِيرٌ... فَإِذَا لَوْ خَصَّصَهُ لِأَعْمَالِ الْبِرِّ وَالْإِحْسَانِ!
مَاذَا لَوْ سَعَى لِلتَّكْمُلِ الدِّينِيِّ؟ مَاذَا لَوْ فَكَّرَ أَنْ كُلَّ مَا فِي الدُّنْيَا مِنْ
خَيْرَاتٍ وَأَعْمَادٍ أَعْرَاضَ زَائِلَةٍ، سَيُغْمِضُ يَوْمًا عَيْنَيْهِ عَنْهَا وَلَنْ يَتِمَكَّنَ
مِنْ حَمْلِهَا مَعَهُ لِلتَّمَتُّعِ بِهَا فِي الْآخِرَةِ... لِأَنَّ اللَّهَ وَحْدَهُ مَجْدُ الْآخِرَةِ
وَمَتَعَتِهَا وَسَعَادَتِهَا.

سَلَكَ يَوْسُفُ الطَّرِيقَ الْمُسْتَقِيمَ وَأَشَاحَ بِوَجْهِهِ عَنِ الْعَالَمِ الَّذِي
يُعْرِيدُ وَيَصْحَبُ مِنْ حَوْلِهِ «بَاطِلُ الْبَاطِلِ وَبَاطِلُ الْكُلِّ». جُهِدَ أَنْ
تَكُونَ ثِيَابُهُ بَيْضَاءَ فِي كُلِّ حِينٍ. ابْتَعَدَ عَنْ كُلِّ الشُّرُورِ وَأَصَمَّ أُذُنَهُ عَنِ
سَمَاعِ نِدَائَاتِ الْجَسَدِ. عَمِلَ عَلَى اكْتِسَابِ الْحِكْمَةِ وَالْفِطْنَةِ وَالْعِلْمِ
«فَالرَّبُّ بِالْحِكْمَةِ أَسَّسَ الْأَرْضَ وَبِالْفِطْنَةِ ثَبَّتَ السَّمَاوَاتِ». يَعْلَمُهُ
تَفَجَّرَتِ النَّجَارُ وَالْغُيُومُ قَطَرَتِ نَدَى»^(١) «الْحِكْمَةُ شَجَرَةُ الْحَيَاةِ
لِلْمُتَعَلِّقِينَ بِهَا وَمَنْ اسْتَمْسَكَ بِهَا فَلَهُ الطُّوبَى»^(٢) فَلْيَفْرَحْ أَبُوكَ وَأُمُّكَ

(١) الأمثال ٣: ١٩ و ٢٠.

(٢) الأمثال ٣: ١٨.

(يا يوسُف) وَلْتَبْتَهُجِ وَالِدَتَكَ^(١) فَقَدْ أَعْطَيْتَ قَلْبَكَ لِلرَّبِّ وَرَعْتَ
عَيْنَكَ طُرُقَهُ.

(١) الأمثال ٢٣ : ٢٥ .

الصلاة

«إفرحوا في الرَّبِّ كُلَّ حِينٍ وَأَقُولُ أَيْضاً افرحوا
وليظهر حلمكم لجميع النَّاسِ فَإِنَّ الرَّبَّ قَرِيبٌ.
ولا تهتمُّوا بشيء بل في كل شيء فلتكن
طَلِبَاتُكُمْ مَعْلُومَةً لَدَى اللَّهِ بِالصَّلَاةِ وَالتَّضَرُّعِ مَعَ
الشُّكْرِ. وليحفظ سلامُ اللَّهِ الَّذِي يَفُوقُ كُلَّ فَهْمٍ
قُلُوبُكُمْ وَبَصَائِرُكُمْ فِي يَسُوعَ الْمَسِيحِ».

فِيلِبِّي ٤: ٤ - ٧

عرف يوسُفُ قِيَمَةَ الْوَقْتِ... فَالذَّاقِقُ مِنْ ذَهَبٍ وَأَغْلَى مِنْ
الذَّهَبِ، لِأَنَّ الثَّانِيَةَ الَّتِي تَنْهَمِرُ فِي بَحْرِ الزَّمَنِ لَا يُمَكِّنُ تَعْوِضُهَا. لَمْ
يَسْتَسْلِمِ قَطُّ إِلَى حَيَاةِ اللّهُو، فَإِذَا اجْتَمَعَ بَعْضُ رِفَاقِهِ فِي الْوَادِي أَوْ
فِي سَاحَةِ كَنِيسَةِ السَّيِّدَةِ، يُكَلِّمُهُمْ عَنِ التَّقْوَى وَالْحُبَّةِ وَالتَّعَاوُنِ
وَالْعَيْشِ فِي الرَّبِّ.

كَانَ يَبْدَأُ يَوْمَهُ بِالصَّلَاةِ وَمِرَافَقَةِ وَالِدَيْهِ إِلَى الْكَنِيسَةِ لِسَمَاعِ
الْقُدَّاسِ بَيْنَمَا يَنْصَرِفُ رِفَاقَهُ لِمُمَارَسَةِ الْأَلْعَابِ الْمُخْتَلِفَةِ فَيَجْتَمِعُونَ
تَحْتَ سِنْدِيَانَةِ الْكَنِيسَةِ الْمُعَمَّرَةِ وَيَقْضُونَ وَقْتًا طَوِيلًا فِي لَعِبَةِ الْبِيلِ
وَالْمِخْبَايَةِ وَالْفَشَخَتَيْنِ وَقَهْرَةِ.

لَمْ يُشَارِكْ يَوْسُفُ يَوْمًا بِهَذِهِ الْأَلْعَابِ، بِالرُّغْمِ مِنْ نَفْعِهَا
وِبَرَاءَتِهَا، بَلْ كَثِيرًا مَا كَانَ يَقْبَعُ فِي زَاوِيَةِ الْبَيْتِ يُصَلِّي مَسْبُحَةَ
«الْوَرْدِيَّةِ» أَوْ يَقُودُ حَيَوَانَاتِهِ إِلَى الْمَرْعَى، أَوْ يَقْصِدُ كَنِيسَةَ مَارِ سَابَا
لِيَخْلُوَ بِرَبِّهِ وَيَتَعَبَّدَ لَهُ وَيَتَأَمَّلَ عَظَمَتَهُ. فَهُوَ لَا يَفْضَلُ شَيْئًا عَلَى الصَّلَاةِ
وَالتَّأَمُّلِ:

رَبِّي،
يَا قِنْدِيلِي الْأَمْتَلِ
مِنْ مَقْطَرِكَ تَذَوِّبْ دَمَكِ،
مَحَبَّةً فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ،
وَرَأْفَةً فِي قُلُوبِ الْمَعْذِبِينَ،
وَبَرَاءَةً فِي عَيُونِ الْأَطْفَالِ،
وَحُضْرَةً فِي تَرَابِ أَرْضِ الْكَادِحِينَ،
يَا رَبِّي،

أَنْتَ وَحْدَكَ أَوْرَثْتَنَا جَسَدَكَ وَدَمَكَ فِي الْقُرْبَانِ الْمُقَدَّسِ، لِيَتَبَقَ لَنَا
رَفِيقًا وَتَسْكُنَ قُلُوبُنَا.

أَنْتِ وَحَدَّكَ، يَا يَسُوعَ، اقْبَلْتِ الْعَذَابَاتِ وَالْإِهَانَاتِ مِنْ أَجْلِ
أَنْ تَعْلَمْنَا سِرَّ الْحُبَّةِ.

أَنْتِ وَحَدَّكَ حَمَلْتَ صَلِيبَكَ وَصَعَدْتَ مَخْتَارًا إِلَى الْجُلُجْلَةِ
وَصُلِبْتَ بَيْنَ لَصِينٍ، وَطُعِنْتَ بِالْحَرْبَةِ وَشَرِبْتَ الْخَلَّ وَالْمُرَّ لِتَدُلَّنَا عَلَى
طَرِيقِ الْخَلَاصِ الْأَمِينِ.

يَا يَسُوعَ،

أَنْتِ وَحَدَّكَ أَطْعَمْتَ الْجِيَاعَ، وَكَسَوْتَ الْعُرْيَانِينَ وَأَسْقَيْتَ
الْعِطَاشَ وَعَزَّيْتَ الْحَزَانِيَّ وَأَوَيْتَ الْمُهْجَرِينَ فَكُنْتَ النُّورَ وَالْأَمَلَ
وَالْخَلَاصَ لِحَيَاتِنَا التَّائِعَةِ.

يَا يَسُوعَ،

يَا حَمَلًا بَرِيئًا

يَا ضَحِيَّةَ مُقَدَّسَةٍ

يَا مِثَالَ الْحُبَّةِ

يَا هَادِي الصَّالِّينَ

يَا غَفُورًا رَحِيمًا

لَا تَأْخُذْنِي بِزَلَّاتِي وَخَطَايَايَ، بَلْ أَرْحَمْنِي، وَأَجْعَلْنِي بَيْنَ عِبِيدِكَ
الصَّالِحِينَ».

هَكَذَا كَانَ يَوْسُفُ يُصَلِّي سَاعَاتٍ طَوِيلَةً، وَلَا يَرْتَوِي. وَكَثِيرًا مَا
كَانَ يَنْخَطِفُ وَرَاءَ تَأْمُلَاتِهِ «فِي آلامِ سَيِّدِنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ» وَيَشْعُرُ

بُوجُوب التَّكْفِيرِ عَنْ خَطَايَا الْبَشَرِ الَّتِي تُثْقِلُ صُلَيْبَ الْمُخْلِصِ وَتَزِيدُ مِنْ
عَذَابَاتِ «حَمَلِ اللَّهِ» وَذَلِكَ بِالتَّعَبُّدِ وَالصَّلَاةِ وَالتَّقَشُّفِ وَأَعْمَالِ الْبِرِّ
وَالْإِحْسَانِ.

وفاة الوالد

«ما من أحدٍ مِنّا يحيا لنفسه ولا أحد يموت لنفسه.
ولكن إن حيينا فللربّ نحيّا وإن متنا فللربّ
نموت. فإن حيينا إذن أو متنا فللربّ نحنُ. لأنّه
لهذا ماتَ المسيح وعادَ حيًّا ليسود على الأموات
والأحياء».

رومة ١٤: ٧ - ٩

حدث أن تُوفيَّ اسطفان بوهيكل عام ١٩٠٢ وابنه يوسف لم
يبلغ الخمسة عشر ربيعًا. فكانت التجربة قاسية على قلبه الطريّ الذي
بدأ يفتّح للحياة. والحياة لمن كان في سنّه هو وعبتُ ولا مبالاة.
شعر بمرارة الفراق تحزّ في قلبه ولكنّ إيمانه الوطيد بأنّ هذه
الحياة ما هي سوى ممر قصير إلى الآخرة، وأنّ والدّه عاش حياة بارّة
تؤهّله لأن يُعامله الله بما يستحقّ من رافّةٍ ورَحمةٍ، سكب على قلبه

بَلَسَمَ الْعَزَاءَ، فَعَمِلَ بِقَوْلِ الرَّسُولِ: «أَمَّا الْمُؤْمِنُونَ فَلَا يَجِبُ أَنْ تَحْزَنُوا عَلَيْهِمْ». وَجَدَ يَوْسُفَ عَزَاءَهُ فِي كَلَامِ الْمَسِيحِ الَّذِي وَعَدَ كُلَّ مَنْ يَعْمَلُ الصَّالِحَاتِ بِالْحَيَاةِ الْأَبَدِيَّةِ كَمَا وَجَدَهُ فِي الصَّلَاةِ.

وَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ التَّجَرِبَةُ الْأُولَى مِحْكًا لِمَتَانَةِ إِيْمَانِهِ وَتَحْمُلِهِ لِلْأَلَمِ وَالْعَذَابِ.

وَأُظْهِرَتْ تِلْكَ الْأُسْرَةُ، بَعْدَ فَقْدَانِ عَمِيدِهَا، عَلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ مِنْ مَحَبَّةٍ وَاتِّحَادٍ، فَلَمْ يَنْفَرِطْ عَقْدُهَا بَلْ تَمَاسَكَتْ أَكْثَرَ فَاكْثَرَ، فَعَمَّرَهُ إِخْوَانُهُ بِعُطْفِهِمْ وَحُبِّهِمْ وَتَازَرُوا جَمِيعًا مِنْ أَجْلِ الْحَيَاةِ.

* * *

تَلَقَّى يَوْسُفَ مَبَادِي الْقِرَاءَةِ وَالكِتَابَةِ فِي مَدْرَسَةِ الْقَرْيَةِ. وَكَانَ يَوْجَدُ فِي سَقِي رَشِيمًا، الْقَرِيبَةَ مِنْ لِحْفُدِ، مَدْرَسَةً لِلرُّهْبَانِ يَعْلَمُونَ فِيهَا الْقِرَاءَةَ وَالكِتَابَةَ وَالْحِسَابَ وَالسُّرْيَانِيَّةَ. فَكَانَ يَذْهَبُ إِلَيْهَا مَرَّاتٍ عَدِيدَةً فِي الْأُسْبُوعِ، فَيُكْمِلُ دَرَأَسَتَهُ وَيَلْتَقِي الرُّهْبَانَ وَيَسْتَمِعُ إِلَى أَحَادِيثِهِمْ وَمُنَاقَشَاتِهِمْ. وَرَأَاهُمْ فِي صَلَوَاتِهِمْ، وَأَطْلَعَ عَلَى طَرِيقَةِ مَعِيشَتِهِمْ فَأَعْجَبَ بِهِمْ. وَآثَرَتْ فِيهِ مَلَاحِجُ الْوَدَاعَةِ وَالتَّوَاضُعِ الْمُرْتَسِمَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ. وَكَانَتْ لِحَاهِمُ الْمَتَهَدِّلَةِ الطَّوِيلَةِ تَزِيدُهُمْ وَقَارًا فِي عَيْنِيهِ. أَحَبَّ الرُّهْبَانُ يَوْسُفَ بِدَوْرِهِمْ وَأَعْجَبُوا بِأَخْلَاقِهِ الرُّصِينَةِ وَأَخَذُوا يَتَحَبَّبُونَ إِلَيْهِ وَيَرْغَبُونَهُ بِالْحَيَاةِ الرُّهْبَانِيَّةِ. وَذَاتَ يَوْمٍ قَالَ لَهُ أَحَدُهُمْ:

- ألا ترغبُ أن تترهَّب، يا يوسف؟
- كيف لا، وهل يمكن أن أحصل على هذا الشرف وأرفض؟
- ماذا تنتظر إذا؟
- وكيف السبيل إلى ذلك؟
- الأمر يا بنيّ في غاية البساطة. اذهب إلى دير كفيفان، وهناك يقولون لك ماذا يتوجَّب عليك أن تفعل.
- وأين هو دير كفيفان هذا؟
- دير كفيفان يبعدُ من هنا مسيرة ثلاث ساعات. فما عليك سوى أن تسلك الطريق التي تقود إلى دير ميفوق ومنه إلى مار ماما فالذوق فتولا فعبدلي. من مشارف هذه البلدة الرائعة تطل على دير كفيفان الفسيح في بسطةٍ من الأرض بين جرّان في الجنوب الغربي وكفيفان إلى الشمال ودريّا من الشرق، تظللّه أشجار الصنوبر وتحيط به غابة من السنديان.
- حفِظتُ أسماء معالم الطريق، وأعتقد أنّي لن أضيع عنها.
- ودير مار قبريانوس كفيفان في البترون تسلّمته الرهبانية اللبنانية، من الأمير يوسف شهاب حاكم الجبل في تلك الأيام، عن يد الرئيس العام الأب اقليموس المزرعاني. سنة ١٧٦٦ م. وكان عددُ

رؤسائه حتى سنة ١٩٥٠ سبعةً وثلاثين رئيسًا. وكان جمهور رهبانه دائبين في الشغل والعمل لاجل تحسين الاملاك وتوسيعها. فرادت مداخيله أضعاف ما كانت عليه في البداية.

ولما كان بناؤه القديم غير كافٍ لسكن الرهبان وكنيسته ضيقة، حقيرة، بنى الأب موسى الشرتوني رئيس الدير آنذ، الكنيسة الحالية، في السنة ١٨٢٦، في عهد البطريرك يوسف حبيش والمطران جرمانوس ثابت، مطران جبيل والبترون، والأب العام إغناطيوس بلسيل، وقد شرع بتجديده الأب إلياس المشمشاني سنة ١٨٦٥، ولقصر ذات اليد لم يتمكن من إتمامه دفعة واحدة. ثم استؤنف البناء برئاسة الأب بطرس البجدرفلي الأول وبطرس البجاني وبول الغماوي الذي أقام الجهتين القبليّة والغربيّة حتّى الباب الكبير على نفقة الرئاسة العامة. ويرجع الفضل بإتمام بنائه إلى الأب يوحنا السبليني الذي حسن الاملاك واقتصد بمداخيلها حتى تمكن من إنجاز العمل في السنة ١٨٩٥.

وكان يوسف يطلب إلى الله أن يُنير عقله وبشّته في دعوته إن كان أهلاً ليُصبح راهباً مثاليّاً يُمجّد الله والكنيسة. ففي الرهبانية يستطيع أن يعزّل نفسه عن العالم، ويكرّسها بتمامها لخدمة الله تعالى. وكانت عواطفه تتجه نحوه تعالى بصلاة قلبية يتردّد صداها في حنايا صدره:

«رَبِّي
«كَيْفَ أَلْتَفِتُ أَجْدُكَ
في ما خلقت يدَاكَ من عدم.
السَّماءُ الفسيحة والفضاء الواسع
وما فيه من كواكب وأجرام.
البرق والرَّعد والمطر
والحقل والجبل والنَّهر
أليست كلها جميلة لأنها صورةٌ قدركَ؟

«رَبِّي
بنار حبِّكَ أَلْتَوَيْتَ
عَشَقْتُكَ
عَبَدْتُكَ
وما أَرْتَوَيْتَ.

«رَبِّي،
حَيَاتِي كُلُّهَا بَدُونِكَ هَبَاءَ
فَأَنْتَ نِعْمَتِي وَنِعِمِّي،
أَوَدُّ أَنْ أَذُوبَ فِيكَ وَأَخْتَفِي.
إِنْ تَأَلَّمْتُ أَوْ شَقِيتَ
فَأَنْتَ وَحْدَكَ مَرْجِعِي.
على طريقِ الحَيَاةِ الْمُوَحِّشِ أَمْشِي

وحيداً شريداً مُعدماً.
 أنت وحدك أُملي وثروتِي ومُرشدِي ،
 أنت وحدك سَلامي وخَلاصي وسعدي ،
 أنت وحدك مَطلبي وملجَائي
 فلا تَنسَني ولا تَهملني .
 حين أناجيكَ
 أنسى وحدتي وبُؤسي
 وتغمرُ قلبي الغبطة وانتشي .
 وحدك ، يا إلهي
 تبليسم جُروحي
 وتقيلي من عَثرتي .
 «ربي
 ألهمني ما يتوجَّب عليَّ القيامُ به ،
 لأرضيكَ وأكونَ صالحاً في عَينِكَ .
 وكلَّ ما أبغي الوصولَ إليه
 الاستحقاق في أن ادعى لك أبناً .
 ارحمني ، يا الله ، واستجب نداءَ قلبي ،
 وشرِّفني بأن أكونَ في عِداد مُحبيكَ ، هؤلاء الرُّهبان المتعبدين
 لك ،
 إن كانَ في ذلك خلاصُ نفسي» .

نِبع الغرير

«إذهب إلى الثملة أَيُّْهَا الكسلان، أنظر إلى طُرُقِهَا
وكن حَكِيمًا».

الأمثال ٦: ٦

كان يوسُف نشيطاً لا يعرف الكسل والتَّواني بل يندفع بكلِّيته
للقيام بِجِدٍّ بما يكلِّف به من أعمال. ينهض كلَّ صباح باكراً ويتَّجه إلى
الحقل مع إخوانه لمُساعدتهم. وكان يُطيعهم طاعةً عمياء ويمتثل
لكلِّ ما يطلبونه منه. فالكَسلان يأتي عَوَزُهُ كساع وفاقته كرجل مسلَّح.
كان معظمُ اللُّبنانيين، في تلك الأيَّام، يعتمدون في معيشتهم على
الزَّراعة وتربيَةِ «دود القزِّ» وأَقْتِناء بعض الحيوانات الاليفة. فالأسرة
بكامِل أفرادها تتعاون وتُساعد لخدمة الأرض. فالأرض هبةٌ ونعمة.
فقد عرفَ اللُّبنانيُّ أَنَّهُ إِن خَدَمَهَا أَنْبَتَ البُلَّان والقُطرب واللَّزاب.

أَيُّ حَنَانٍ هُوَ حَنَانُهَا وَأَيُّ عَطْفٍ هُوَ عَطْفُهَا وَأَيُّ كَرَمٍ هُوَ كَرَمُهَا!
تَحْمِلُنَا عَلَى مَتْنِهَا دُونَ مَلَلٍ، وَتُعِينُنَا مَتَى احْتَجْنَا إِلَيْهَا دُونَ بُخْلِ،
وَتُعْذِنُنَا مَتَى جَعَلْنَا دُونَ مِتَّةٍ، وَتَفْتَحُ ذِرَاعِيهَا لِاحْتِضَانِنَا عِنْدَمَا يَرْفُضُ
وَالدُّنَا وَزَوْجُنَا وَأَوْلَادُنَا وَجُودَنَا.

وَالْأَرْضُ حَيْثُ نَتَجَّهُ سَهْلٌ وَحَوَاكِرٌ وَمَدَرَجَاتٌ أَسْتَلَبَهَا الْجُدُودُ
مِنَ الصَّخْرِ بِخَفَرِهَا وَنَحْتِهَا بِأُظْفَارِهِمْ وَأَدْوَاتِهِمُ الْبِدَائِيَّةِ حَتَّى كَوَّنُوا
عَلَى مَدَى أَجْيَالٍ مِتْلَاحِقَةً فُسُحَاتٍ صَالِحَةٍ لِلزَّرْعَةِ. جَبَلُوا تَرَابَهَا
بِعَرَقِ أَجْبَهُتِهِمْ وَدِمَاءِ قُلُوبِهِمْ فَبَاتَتْ صُلْبًا مِّنْ صُلْبِهِمْ وَجَزَاءً مِّنْ
كَيَانِهِمْ.

حَمَلَ اللَّبْنَانِيُّ أَرْضَهُ فِي قَلْبِهِ لِكثَرَةِ مَا أُعْطِيَ فِي سَبِيلِهَا فَتَجَدَّرَتْ
أُصُولُهُ فِي أَعْمَاقِهَا. وَكَانَتْ كُلُّ أُسْرَةٍ تَبْدُلُ جُهِدَهَا لِاسْتِنْبَاتِ كِفَايَتِهَا
مِنَ الْجُبُوبِ وَالْخُضَارِ وَالْفَاكِهِةِ. لِذَلِكَ قِيلَ: «فَلَّاحٌ مَكْنِي سُلْطَانٍ
مُخْفِي» كَمَا قِيلَ أَيْضًا: «هَنِيئًا لِمَنْ لَهُ مَرْقَدٌ عِزَّةٌ فِي جَبَلِ لُبْنَانَ» لِأَنَّ
هَذَا الْمَرْقَدَ كَانَ يَعْرِفُ كَيْفَ يَسْتَغْلُهُ وَيَسْتِثْمِرُهُ لِيَحْيَا حَيَاةً هَادِئَةً،
مُطْمَئِنَّةً، كَرِيمَةً.

أَيْنَ الْيَوْمِ مَا كَسَبَهُ الْجُدُودُ عَلَى الصَّخْرِ؟
تَبَدَّلَتْ الْأَيَّامُ وَأَهْمِلَتْ الْكُرُومُ وَمَاتَ مَوْسَمُ «دُودِ الْقَرْ» وَلَمْ تُعْدِ
الزَّرْعَةُ تَكْنِي مِتْطَلِبَاتِ اللَّبْنَانِيِّ الْيَوْمِ.

كثيرون خانُوا الأرض وهجروها بعد أن كانت سبباً لعيش
أجدادهم أجيالاً، ولم نعد نرى في القرى بيدراً ولا مورجاً، معصرة
ولا دبساً. وأصبحت الكركرة والدست والمحدلة وجرن الكبة والتيفار
والخز والجاروش والهاون وطنجرة النحاس والقدر والموقدة من
ذكريات الماضي.

* * *

في ذات يوم، بينما كان يوسف يجدُ عاملاً رأى غريباً يجري
مُسرعاً بجانب الحقل الذي يعمل فيه ويدخل مغارة لم يتعرف إليها
أحد قبل. تقدّم يوسف على مهل فرأى أن فوهتها ضيقة يستحيل أن
ينفذ منها أحد إلى الداخل.

وقف الشاب أمامها برهة مفكراً ومتسائلاً: ما شأني والغريب؟ لماذا
إضاعة الوقت في ملاحقته؟ قد تكون المغارة ضيقة من الداخل. يجب
أن أعود إلى عملي. ولكنه شعر بدافع قوي يحثه على ملاحقة
الحيوان. لم يستطع أن ينصرف.

صادف في ذلك الوقت، أن مرَّ أحدُ شيوخ القرية فلاحظ
الأرتباك والحيرة مرتسمين على جبهة الشاب.

— ما بالك، يا يوسف؟

— لقد رأيتُ غريباً يدخل هذا المكان وأريد أن أخبره.

— وما شأنك به؟

— ألا يُؤْكَلُ لحمه ، يا عم أبو فارس؟

— من النَّاسِ من يستطيعُهُ ، ولكن كيف السَّبِيلُ إليه ، انظر هُنا

قريباً من الأرض ، الصَّخر مقبَّب . إنِّي أستطيعُ أن أُلجَّ إلى الدَّاخل زَحْفاً على بطني . انتظرنِي حتَّى أحاول ، لعلِّي أصادِفُ صُعوبةً فتُعِينُنِي على إِزالتها

— بكلِّ طيبةٍ خاطِر ، يا بُنَيَّ .

انبطَحَ يوسفُ على بطنه وأنسابَ إلى داخلِ المَغارةِ انسياب

الحَيَّة . وبدا لَهُ أَنَّ أرضَها شديدةُ الرُّطوبةِ فَقَالَ في نفسه «لا شكَّ أَنَّهُ يوجَدُ نبعٌ في هذا المكان» .

أمسَكَ الشَّابُّ الغريرَ وسلَّمه لِأبي فارس وهو يقول :

— سأعودُ إلى المغارةِ ثانية .

— ماذا هُناك !

— أعتقد ، يا أبا فارس ، أَنَّهُ يوجدُ ينبوعٌ ...

— من أين لهذا المَكان الصَّخريّ المَاء؟

— دعني أجربُ ، لَنَ يطُولَ بي الوقت .

دخلَ يوسفُ إلى المغارةِ ، وأخذَ يحفرُ أَحَدَ الجدرانِ ويرفَعُ الحجارةَ

فإِذَا المَاءُ ينبَجِسُ من قَلْبِ الصَّخر . وصاح :

– نَبْعُ الْغَرِيرِ.

وخرَجَ من المغارة وقد لَوَّثَتِ الوُحُولُ ثِيَابَهُ وبلَّلَتْهَا بالماء.
انتَشَرَ خبر النَّبْعِ في القرية. وما أَسْرَعَ أَنْتِشَارُ الْأَخْبَارِ في الْقَرْىِ!
وما هُوَ وَقْتُ قَصِيرٍ حَتَّى اجْتَمَعَ جُمهُورُ الْأَهَالِيِّينَ بِجَانِبِ الْمَغَارَةِ
يَتَشَاوَرُونَ وَيُلْغِطُونَ وَقَرَّ الرَّأْيُ عَلَى تَوْسِيعِ فَوْهَةِ الْمَغَارَةِ عَلَى الْفُورِ
لِلتَّأَكُّدِ مِنْ وُجُودِ الْمَاءِ. وَلَا يَجْهَلُ أَحَدٌ أَهْمِيَّةَ الْمَاءِ فِي الْقَرْىِ وَخَاصَّةً
فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ. إِنَّ مُعْظَمَ الْأَهْلِينَ فِي الْقَرْىِ يَسْتَقُونُ مِنْ مِيَاهِ الْآبَارِ
الْمَلَوْنَةِ. فَإِذَا كَانَ يُوسُفُ قد وَجَدَ يُنْبِئُوهَا فَهُوَ حَقًّا قَدِّيسٌ «إِذْ إِنَّهُ يَكُونُ
قد أَعْطَاهَا مَوْرِدَ حَيَاةٍ جَدِيدَةٍ وَوَفَّرَ عَلَيْهَا قَدْرًا كَبِيرًا مِنَ الْمَشَقَّةِ.
لَمْ يُكَلِّفْ أَمْرُ تَوْسِيعِ فَوْهَةِ الْمَغَارَةِ سِوَى ضَرْبَاتٍ قَلِيلَةٍ مِنْ مَهْدَّةِ
مِطَانِيوسَ وَمَعُولَ يَعْقُوبَ وَرَفَشَ هَيْكَلَ. وَتَنَاقَبَ الرِّجَالُ عَلَى دُخُولِ
الْمَغَارَةِ وَأَزَالُوا الْحِجَارَةَ مِنْ حَوْلِ مَخْرَجِ الْمَاءِ فَجَرَّتْ غَزِيرَةٌ صَافِيَةٌ.
– الْحَمْدُ لِلَّهِ وَالشُّكْرُ لَكَ، يَا يُوسُفَ.

– هَذِهِ بَرَكَةٌ.

– هَذِهِ نِعْمَةٌ.

– هَذِهِ ثَرْوَةٌ.

– هَذَا خَيْرٌ.

عَمَّتِ الْفَرَحَةُ لِحَفْدِ بَكَامِلِهَا ذَلِكَ الْمَسَاءَ وَمَلَأَتِ الْغِبْطَةُ الْقُلُوبَ.

احتَفَظَ النَّبِيعُ بِالاسْمِ الَّذِي أَطْلَقَهُ عَلَيْهِ يُوسُفُ «نَبِيعُ الْغَرِيرِ».
وَكَانَتْ هَذِهِ الْأَعْجُوبَةُ الْأُولَى الَّتِي أَجْرَاهَا اللَّهُ عَلَى يَدِ مُجِيبِهِ
يُوسُفَ.

نداء الربّ

«أصْعُوا إِلَيَّ، يَا شَعْبِي، وَأَصْبِخُوا لِي يَا أُمَّتِي فَإِنَّ
الشَّرِيعَةَ تَخْرُجُ مِنْ بِي وَحُكْمِي أَقْرَهُ نُورًا لِلشُّعُوبِ.
بِرِّي قَرِيبٌ وَخِلَاصِي قَدْ بَرَزَ وَذِرَاعَايَ تَحْكُمَانِ
لِلشُّعُوبِ. إِنِّي أَنْتَظِرُ الْجَزَائِرَ وَعَلَى ذِرَاعِي
تَعْتَمِدُ. ارْفَعُوا إِلَى السَّمَاوَاتِ عُيُونَكُمْ وَأَنْظُرُوا إِلَى
الْأَرْضِ مِنْ تَحْتِ. إِنَّ السَّمَاوَاتِ كَالدُّخَانِ
تُضْمَحَلُّ وَالْأَرْضُ كَالثُّوبِ تَبْلَى وَسُكَّانُهَا يَمُوتُونَ
كَذَلِكَ. أَمَّا خِلَاصِي فَيَكُونُ إِلَى الْأَبَدِ وَبِرِّي لَا
يَسْقُطُ. اسْمَعُوا لِي يَا عَارِفِي الْبَرِّ. الشَّعْبُ الَّذِينَ
فِي قُلُوبِهِمْ شَرِيعَتِي لَا تَخْشَوْنَ تَعْيِيرَ النَّاسِ وَمَنْ
تَجَادَفَ فِيهِمْ لَا تَرْتَاعُوا. لِأَنَّهُ كَالثُّوبِ يَأْكُلُهُمُ
الْعُثَّةُ وَكَالْصُّوفِ يَقْرُضُهُمُ السُّوسُ. أَمَّا بِرِّي
فَيَكُونُ إِلَى الْأَبَدِ وَخِلَاصِي إِلَى جِيلِ الْأَجْيَالِ».

أشعيا ٥١: ٤ - ٨

«عجائِبُكَ، يا رَبِّ، تَعْمُرُنِي،

تُحِيطُ بِي،

وها قد تَفَجَّرَتْ على يَدَي

أنا يوسُفُ المَسْكِينِ، ولم تَتَفَتَّحْ شَمْسِي بعد.

عجائِبُكَ، يا رَبِّ،

أَعْظَمُ من أَنْ يُحِيطَ بِهَا إدراكُ، أو يرُسِّمها خيال أو تَحْكِيها

شَفَتَانِ.

فَجَّرَتْ يُنبِوعَ حياة، من صُلْبِ جُلُود صخر.

اجْعَلْ قلبي، يا الله، يُنبِوعًا متدفِّقًا بالعطاء،

عطاءً في التَّقْوَى، عطاءً في التَّضْحِيَةِ، عطاءً في الحُبِّ.

أَعْطِنِي القُوَّةَ لِأَحِبِّ كما أَحْبَبْتَ،

وَأَطَبِعْ حَيَاتِي كُلَّها بِمَيْسَمِ الطَّهَّارَةِ.

اجْعَلْنِي، يا رَبِّ، لا أَفْكُرُ إِلَّا فِيكَ،

فلا أَشْتَهِي شهوةً إِلَّا وَأَنْتَ مُحَوِّرُها،

ولا أَنْوِي نِيَّةً إِلَّا فِي ضَوْءِ تعاليمِكَ المقدَّسِ

ولا أنشدُ أنشودةً إلَّا تمجيدًا لعَظَمَتِكَ
 مِن فَضْلِكَ اللَّامُتَنَاهِي، يَا رَبِّ، هَذِهِ الْأَكْوَانُ الَّتِي شَاءَتْ
 حَكْمُكَ السَّامِيَّةَ،
 أَنْ تَزَيِّنَهَا بِالْجِبَالِ وَالْوُدَيَانِ وَالْهَضَابِ وَالْأَنْهَارِ وَالْبِحَارِ وَالْأَدِيمِ
 الْأَزْرَقِ الرَّائِعِ.
 أَشْكُرُكَ، يَا رَبِّي، لِأَنَّكَ مَيَّزْتَنِي عَنْ سَائِرِ مَخْلُوقَاتِكَ بِالنُّطْقِ
 وَالْعَقْلِ وَالْإِرَادَةِ وَالْحُرِّيَّةِ وَالْوَعْيِ،
 وَهَا أَنَا جَائٍ، عِنْدَ قَدَمَيْكَ، بِأَنْسِحَاقٍ كُلِّي،
 رَاجِيًا مِنْكَ، بِإِيْمَانٍ وَثِقَةٍ، أَنْ تُنِيرَ عَقْلِي، وَتُقَوِّي إِرَادَتِي.
 اجْعَلْنِي أَكْرَهَ الدُّنْيَا وَبَهَارِجِهَا الزَّائِلَةِ،
 لِأَقْتَرِبَ مِنْكَ وَأَذُوبَ فِيكَ
 فَأَنْتَ وَحْدَكَ مَالُ السَّعَادَةِ الْحَقِيقِيَّةِ.
 اسْمَعْ صَوْتَ اسْتِغَاثَتِي، وَأَسْمَحْ لِي أَنْ أَنْضَمَّ إِلَى جَوْقَةِ خَدَامِكَ
 الْآمِنِينَ، الَّذِينَ يَكْرِسُونَ حَيَاتَهُمْ بِكُلِّ ثَوَانِيهَا مِنْ أَجْلِ مَرْضَاتِكَ».
 رَفَعَ يُوسُفُ هَذِهِ الصَّلَاةَ إِلَى اللَّهِ، وَهَمَسَ إِلَيْهِ بِأَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ
 أُخْرَى وَعَادَ إِلَى بَيْتِهِ فَبَادَرَهُ أَخُوهُ نِعْمَةُ اللَّهِ :

– أَيْنَ كُنْتَ، يَا أَخِي حَتَّى الْآنَ؟

وَأَرَدَفَ الْآخَرُ:

– أَلَا تَعْرِفُ أَنَّنَا عِنْدَمَا لَا نَجِدُهُ فِي الْبَيْتِ يَكُونُ فِي الْكَنِيسَةِ؟

حَقًّا، قَالَ سَرْكِيْسُ، إِنَّ أَخَانَا يُوسُفَ، يَعِشُقُ الصَّلَاةَ، وَالتَّائُمْلَ، وَمُنَاجَاةَ اللَّهِ، لِهَذَا يَدْعُوهُ جَمِيعُ رِفَاقِهِ «يُوسُفَ الْقَدِيسِ».

قَالَ يُوسُفُ:

– أَنَا خَاطِي مِسْكِينٍ، أَصْلِي كَمَا عَلَّمَتْنَا الْوَالِدَةُ. لَا أَجِدُ رَاحَتِي

وَأَطْمِئْنَانِ قَلْبِي خَارِجَ الصَّلَاةِ. هَلْ مِنْ عَمَلٍ أُوْدِيهِ؟

نَظَرَ إِلَيْهِ إِخْوَانُهُ بِخَنَانٍ وَمَحَبَّةٍ. وَقَالَ نِعْمَةُ اللَّهِ:

– لَيْسَ لَدَيْنَا مَا نَقُومُ بِهِ، هَذَا الْمَسَاءُ. مَرَرْتُ الْبَارِحَةَ بِمَحَلَّةِ

«الشَّيْرِ» فَرَأَيْتُ السَّيْلَ قَدْ هَدَمَ الْجِدَارَ الشَّمَالِيَّ فَمَا رَأَيْكُمْ لَوْ نَذَهَبَ إِلَى

هُنَاكَ وَنَعِيدَ بِنَاءِهِ. إِنَّ جَارَنَا أَبُو فَارَسٍ وَوَلَدُهُ سَرْكِيْسُ مُسْتَعِدَّانَ

لِمُعَاوَنَتِنَا كَيْ يَتِمَّكُنَا مِنْ جِرَاثَةِ أَرْضِهِمَا.

أَجَابَ سَرْكِيْسُ:

– قَدْ يُلْحَقُ بَقَاءُ الْحِجَارَةِ فِي أَرْضِ جَارِنَا الضَّرْرُ بِهِ، فَلَا يَجُوزُ

التَّأْجِيلُ.

- لا يوجد أوجب من هذا العمل.

وبقي يوسف صامتاً غارقاً في بحر تأملاته، كأنَّ الأمر لا يعنيه.
غداً؟ ما أبعدهُ! هل الغد لنا لتكلم بشأنه؟ أليس الغد لله؟!
غداً. أين سأكُون غداً؟

كيف أبتعد عن هذا البيت الحبيب الذي فيه رأيت النور
ودرَجْتُ ونشأتُ وكبرتُ وشارفتُ الشَّباب؟ كيف أترك هذه الحِجَارة
السَّمرَاء التي رصفها الجُدود حجراً فوق حجر، وقد رأت مَنْ مَرَّوا
وعايشَتَهُمْ وسمِعَت أناشيدَهُمْ وبُكاءَهُمْ وشاركتَهُمْ سَعَادَتَهُمْ وبُؤْسَهُمْ
وحفِظْتُ كُلَّ تاريخِهِمْ؟
آه لو أمكنها أن تتكلَّم كم كانت تُخبرُنَا من قصصٍ وأساطير
غافية في بطن ذرَّاتها.

إخوتي الذين يغمرُوني بمحبَّتِهِمْ وعطفِهِمْ... كيف أرَحَل عَنْهُمْ؟
سِنديانَةُ مار سَابا، كَنيسةُ السَّيِّدة، نبعُ العَرير، سقي رَشْمياً...
أرضي، هذا الجزءُ العزيز من رُوحِي، لِحَفْد، مربع صباي... كيف
أبتعد عن كُلِّ هذا؟

بينما يُوسف غارق في تأملاته، يستعيد حياته الماضية سمع في قرارة
ذاته صوتاً داوياً كالرَّعد: «الحقُّ أقول لكم إنَّه ما من أحد ترك بيتاً أو

إخوة أو أخوات أو آبًا أو أمًا أو بنين أو حُقُولاً لأجل اسمي ولأجل الإنجيل إلاّ ويأخذُ مئة ضعف. أمّا في هذا الزّمان فبُيوتاً وإخوة وأخوات وأمّهات وبنين وحُقُولاً مع اضطهادات، وأمّا في الدّهر الآتي فالحياة الأبديّة»^(١).

عندئذٍ اتّخذ الشّابُّ قراراً ثابتاً بالانسحاب من الحياة العامّة. «سأتوجّه هذه اللّيلة إلى دير كفيفان للدّخول في سلك الرّهبانية ولن تأخّر يوماً واحداً عن تنفيذ ما وطّدت النّيّة عليه».

كان القرويون قد انسحبوا إلى بيوتهم واجتمعوا حول المواقد يضطلّون. فالفصلُ شتاء. وفي الخارج يتساقطُ الثلج رضاباً خفيفة تدوّم في الفضاء كالفراشات البيضاء المتلاحقة قبل أن تكسو البطح والسّهول والجلالي والمنحدرات وأكتاف الجبال وسطوح البيوت وتمحو معالم السّبل والأرزاق.

كانت البيوت اللّبنانية قديماً غيرّها اليوم، تتألّف من غرفة واحدة فسيحة مستطيلة، بُنيت من حجارة مقصوبة، رُصّفت بعضها فوق بعض، وطليّت جدرانها وأرضها بالطين. وترتكز سطوحها على الوصالي تُرصف فوقها الأخشاب والبلاّن وتوضّع فوقها طبقة سميكة من الحواري ترصّ بالمحذلة بعد ترطيبها بالماء.

(١) مرقس ١٠: ٢٩ و ٣٠.

يُقَسَّمُ البيت إلى سُوقَيْنِ تفصل بينهما ثلاث قناطر يقوم عليها قوسان. يحمل عمود الوسط خرقة حجرية يوضع عليها سراج الزيت. وفي الجدران «يوكات» تصفّف فيها الفرش والأغطية وبعض الحاجيات الأخرى.

يوجد في إحدى السُّوقَيْنِ دائرة منخفضة يجعلون فيها الموقد الحواري، المعدّ لطهو الطعام وإيقاد الأحطاب للاستدفاء شتاءً، في الأمسيات الباردة.

ويحوى بيت القرويّ زريبة الحيوانات وخمّ الدجاج وترتفع أمام إحدى نواحيه جفنة، يُفَاخِرُونَ بها، ويفيدون من ظلّها وعنبها، وتمتدّد أمام الناحية الثانية مصطبة قليلة الارتفاع يُقيمون فوقها عرزالاً من غصون الغار والصنوبر والسنديان يسهرون وينامون فيه أيّام الصيف.

كان بيت اسطفان بو هيكلا لا يختلف عن بقية بيوت القرية.

* * *

جلس يوسف مع إخوته ذلك المساء حول الموقد يستدفئون والدخان يتصاعد كثيفاً ويملاً جوانب البيت، فتدّمّع له العيون، وأخذ يُصلّي ويناجي الله بشوق، وهو ينظر إلى مذبح بيتهم الصغير

الَّذِي عِنْدَ أَقْدَامِهِ. تَمَّتْ صَلَوَاتُهُ الْأُولَى الَّتِي عَلَّمَتْهُ آيَاهَا أُمُّهُ، وَأَجَالَ عَيْنِيهِ فِي زَوَايَا الْبَيْتِ وَجِدْرَانِهِ وَسَقْفِهِ وَسَرَاجِ زَيْتِ الْحُلُوِّ وَالْمَهْدَةِ وَالْمَنْكَاشِ وَالرَّفْقَشِ وَالْحَبْلِ وَالسَّكَّةِ وَالْجَارُوشِ وَتَيْفَارِ التِّينِ وَصَنْدُوقِ جَهَازِ أُمِّهِ. تَأَمَّلْ كُلَّ شَيْءٍ.

وَكَانَ بَعْضُ الْمَرَّاتِ يَثَبَّتْ أَنْظَارُهُ فِي وَجْهِهِ إِخْوَتِهِ الْمَشْرِقَةِ، وَلَمْ يُخَالِجْهُمْ أَيْ شَيْءٍ فِي أَنْ أَخَاهُمْ يَقْضِي لَيْلَتَهُ الْأَخِيرَةَ مَعَهُمْ، فَقَدْ احْتَفَظَ بِسَرِّهِ لِنَفْسِهِ خَوْفٌ أَنْ يِعَاكِسُوهُ فَيَضْعُفَ.

لَمْ يَسْتَغْرِبْ أَحَدٌ سُلُوكَهُ هَذَا الْمَسَاءَ فَلَطَالَمَا أَعْتَادُوا مِنْهُ الصَّمْتَ وَالْهُدُوءَ. أَمَّا هُمْ فَكَانُوا يَتَحَدَّثُونَ بِشُؤْنِ الْأَرْزَاقِ وَالْمَوَاسِمِ وَالْمَعِيشَةِ وَيَتَدَاوِلُونَ فِي مَا سَمِعُوهُ مِنْ أَخْبَارِ الْقَرْيَةِ وَأَحْدَاثِ الْبِلَادِ.

إلى دير كفيفان

«إذا تقدّم عليّ الأشرار ليأكلوا لحمي ، مضايقي
وأعدائي ، فإنهم يعثرون ويسقطون. إذا اصطفت
عليّ عسكر فلا يخاف قلبي وإن قام عليّ قتال
ففي ذلك ثقتي. واحدة سألت الرب وإياها أتمس
أن أقيم بيت الرب جميع أيام حياتي لكي أعاين
نعيم الرب وأتأمل في هيكله».

مزمو ٢٦: ٢ - ٤

كان الهواء يصفّر في الخارج صغيراً مزعجاً وينذر بهبوب عاصفة
قاسية. والبرد قارس ينفذ إلى داخل البيوت من شقوق الابواب. أمّا
النوافذ فكانت موصدة ومطلية بطبقة من الحواري. البرد شديد ،
تحمّر له الأنوف وتتصلّب الأعضاء حتّى إنّ الذين اعتادوا أن يسهرُوا

عند جيرانهم لزموا بُيوتهم وجلسوا مع أسرهم حَوْلَ المَوَاقِدِ تَضَطَّرَمَ فيها نيران الأحطاب وتبعث دفئاً محيياً أعياه طرد البرد.

نهض نعمة الله وسركيس وهيكل و «غِلَّ» كلَّ في فراشه. فالفراش خيرٌ ما يلجأ الإنسان إلى أحضانه لاتقاء شرِّ البرد. وظلَّ يوسف ساهراً.

ارتفع صوتُ نعمة الله

— ألا تريد أن تنام، يا يوسف؟

— ليس الآن، الليل طويل، ولم أنعس بعد.

— لا تنس أن تطفئ النار وتفتح أبواب البيت كي يخرج الدخان منه.

لا عليك، يا أخي، نم مطمئناً.

* * *

انتصف الليل ويوسف ما زال يُفكِّر ويُصَلِّي.

وبعد فترةٍ طويلة، نهض يوسف وفتح الباب وأطفأ العيدان المشتعلة في «جرن الصفوة» ورامها خارجاً تحت العريشة.

كانت الأفكار تضطرب في رأسه وسمع صوتاً يتردد في أعماق ذاته: «وكل من ترك بيتاً أو إخوة أو أخوات أو أباً أو أمّاً أو امرأة أو بنين من أجل اسمي يأخذ مئة ضعف، ويرث الحياة الأبدية»^(١).

أَنْصَبْتُ قَلِيلًا فَتَأَكَّدَ أَنَّ إِخْوَتَهُ قَدْ نَامُوا، فَأَغْلَقَ الْبَابَ بِهُدُوءٍ
وَاتَّجَهَ إِلَى الطَّرِيقِ الْعَامِّ فَإِذَا بِالضَّبَابِ يَغْطِي لِحْفَدَ وَيَبْتَلِغُهَا فَلَا يَدْرِي
أَحَدٌ أَيْنَ هِيَ.

لَمْ يَلْتَفِتْ إِلَى الْوَرَاءِ كَيْ لَا يَنْدَمَ عَلَى أَيِّ إِنْسَانٍ أَوْ شَيْءٍ فَارَقَهُ.
كَانَ الظَّلَامُ حَالِكًا يَحْجِبُهُ عَنِ الْأَنْظَارِ. إِنَّهُ يَعْرِفُ هَذِهِ الطَّرِيقَ. فَكَمْ
مِنَ الْمَرَّاتِ مَشَاهَا وَرَاءَ أَبْقَارِهِ!

أَخَذَ الثَّلْجُ يَتَسَاقَطُ رَقَاعًا بِيضًا كَأَزْهَارِ الْيَاسْمِينِ. لَمْ يَخْفَ وَحْشَةً
ذَلِكَ اللَّيْلِ، وَلَا عَوَاءَ بَنَاتِ آوَى الْجَائِعَةِ، وَلَا ظُلْمَةَ اللَّيْلِ
وَأَسْبَاحِهِ... هُوَ يَسْتَعِمِدُ شَجَاعَتَهُ مِنْ حَرَارَةِ إِيمَانِهِ. «الرَّبُّ نُورِي
وَحَلَّاصِي فَمَنْ أَخَافَ، الرَّبُّ حِصْنُ حَيَاتِي فَمَنْ أَفْزَعُ»^(١).

لَفَهُ اللَّيْلُ وَبَعْدَ عَنْ لِحْفَدَ. شَعْرَ الْبَرْدِ يَخْتَرِقُ مَسَامَ جِسْمِهِ كَالْمَسَامِيرِ
وَيُلْفَحُ عَيْنِيهِ فَيَسِيلُ الدَّمْعُ مِنْ مَاقِبِهَا وَيَكَادُ يَتَجَمَّدُ.

هُنَاكَ عِنْدَ نَهَايَةِ الْخُرْجِ الَّذِي عِنْدَ مَدْخَلِ لِحْفَدِ أَلْحَتَ عَلَيْهِ
الذِّكْرِيَّاتُ. هَذِهِ آخِرُ خُطْوَةٍ يَخْطُوهَا قَبْلَ أَنْ يَنْعَطِفَ بِاتِّجَاهِ مَيْفُوقٍ.
تَرَاقَصَتِ الصُّورُ عَلَى شَاشَةِ مَخِيلَتِهِ وَخِيلَ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَسْمَعُ صِيَاحَ الصَّبَايَا
وَالشَّبَّانِ يَتَرَاشَقُونَ بِالثَّلْجِ. وَفَجْأَةً سَمِعَ هَمْسًا لَمْ يُدْرِكْ مَصْدَرَهُ: «إِلَى
أَيْنَ، يَا يُوسُفُ؟ حَرَامٌ عَلَيْكَ أَنْ تَدْفِنَ شَبَابَكَ فِي زَوَايَا دِيرِ كَفِيْفَانَ

المظلم. أين رفاق صباك الذين جالستهم تحت سنديانة مار سابا؟ أين قطيعك؟ أهكذا تترك إخوانك. أنسيت ما أحاطوك به من عناية؟ أهكذا تهرب من تبعاتك في البيت؟ أهكذا تترك ميراث أهلك وأرض أجدادك يتمتع بها سواك؟ أهكذا تحرم نفسك من الحرية؟ ألا تدرك أن الرهبانية سيجن لن تبارحه ما حيت؟ أنت اليوم حر، تذهب حيث تشاء وتفعل ما يروق لك وغداً تؤمر فتطيع، وتصبح أداة في يد سواك يجرُّها كيف يحلو له، يصيح في وجهك فتصمت يلاحقك بملاحظات وأوامره ويعاقبك عن كل سيئة تبدر منك.

توقف يوسف عن متابعة السير. شعر بشيء من البلبلة الغامضة تجتاح ذاته. وتساءل ما هذا الصوت الذي يشده إلى الوراء. وصرخ «ساعدي، يا رب». وهنا تراءى له رهبان سقي رشيا واحداً واحداً. لمن يعمل أولئك الرهبان، أليس لمجد الله تعالى وخلاص أنفسهم؟ لا شك أنني أسمع وساوس شيطان رجيم. لن أصغي له. وسجد على الثلج يصولي. ولما نهض شعر بالدفع يدب في جسده. «كلاً، لن ألتفت إلى الوراء». وأخذ يترنم مُنشداً:

«استمع يا رب،

إنني بصوتي أدعو

فارحمي وأستجب لي.

بك نطق قلبي،

إِيَّاكَ أَلْتَمَسَ وَجْهِي .
وَجْهَكَ ، يَا رَبِّ أَلْتَمَسَ .
لَا تَحْجِبْ وَجْهَكَ عَنِّي
وَلَا تَنْبُذْ بَغْضَبِكَ .
نَاصِرًا كُنْتَ فَلَا تَخْذُلْنِي
وَلَا تَتْرُكْنِي ، يَا إِلَهَ خَلَاصِي .
إِنَّ أَبِي وَأُمِّي قَدْ تَرَكَانِي
لَكِنَّ الرَّبَّ قَبْلَنِي .
عَلَّمَنِي ، يَا رَبِّ ، طَرِيقَكَ
وَاهِدْنِي فِي سَبِيلِ الْأَسْتِقَامَةِ
مِنْ أَجْلِ مُضَاقِي .
لَا تَدْفَعْنِي إِلَى مَرَامِ مُضَاقِي
فَإِنَّهُ قَدْ قَامَ عَلَيَّ شُهُودٌ زُورٌ وَنَافِثٌ جَوْرٌ .
إِنِّي آمَنْتُ
أَنْ أَعَايِنَ جُودَةَ الرَّبِّ
فِي أَرْضِ الْأَحْيَاءِ .
تَشَدَّدْ
وَلَيْتَشَجَّعَ قَلْبُكَ

وَأَرْجُ الرَّبَّ»^(١).

أَكْمَل طَرِيقَهُ بَشَاتِ والثِّقَّةَ والعِزَّمَ يَمْلَأَنَّ قَلْبَهُ. وَآخِذَ نَفْسَهُ عَلَى الضُّعْفِ الَّذِي اعْتَرَاهُ وَلَوْ بَرَهَةً قَصِيرَةً. وَرَاحَ يُرَدِّدُ:

«إِلَيْكَ، يَا رَبِّ، أَصْرُخُ

يَا صَخْرَتِي لَا تَتَصَامَمَ عَنِّي

لِئَلَّا تَصْمَتَ عَنِّي

فَأَشَابَهُ الْهَابِطِينَ فِي الْجُبِّ.

اسْتَمَعَ صَوْتَ تَضَرُّعِي

عِنْدَ اسْتِغَاثَتِي بِكَ

وَرَفَعَ يَدَيَّ نَحْوَ مَحْرَابِ قَدْسِكَ»^(٢).

إِلَيْكَ، يَا رَبِّ، أَصْرُخُ

أَنْتَ تَرَى خَبَايَا الصُّدُورِ

وَتُدْرِكُ مَا يَجُولُ فِي الْخَوَاطِرِ

وَتَسْمَعُ نَبْضَاتِ كُلِّ الْقُلُوبِ.

أَنْتَ عَارِفٌ بِآثَامِي،

(١) مزمور ٢٦: ٧ - ١٤.

(٢) مزمور ٢٧: ١ و ٢.

فَأَجِرْ عَنِّي غَضَبَكَ
وَلَا تَدْمُرْنِي كَمَا تَدْمُرُ الْكَافِرِينَ بِكَ
لَا عِني اسْمُكَ
وَلَا تَأْخُذْنِي بِضُعْفِي.
أَنْتَ، يَا رَبِّ، عَزَّيْ وَحَصْنُ خَلَاصِي
إِلَيْكَ أَلْجَأُ الْآنَ
فَكُنْ لِي مِظْلَةً
تَحْمِينِي مِنْ أَعْدَائِي.
أَرْضُ نَفْسِي عَجْفَاءُ
تَنْبُتُ فِيهَا الْأَشْوَاكُ
فَأَنْتَ مِجَنِّي وَعَلَيْكَ اتَّكَلْتُ.
يَا رَبِّ، هَا أَنَا آتٍ إِلَيْكَ
لَأَنْطِقَ بِعِزَّتِكَ وَمَجْدِكَ
وَأَسْأَلُكَ إِلَيْكَ مَسْلَكَ الْمَتِّمِينَ بِحُبِّكَ.
بِالْأَنَاشِيدِ وَالصَّمْتِ أَنَا جِيئُ
وَبِلِسَانِي وَقَلْبِي أُنَدِمُ وَأَعْتَرِفُ وَأُصَلِّي.
إِلَيْكَ، يَا رَبِّ، أَصْرُخُ،
اجْعَلْ لِسَانِي وَشَفَتَيَّ

لا تتحرّك،
إلّا للتلفظ باسمك القدّوس.

ثبّني في دَعوتي،
ولا تسمح أن أعيش ممزّقاً.
ليسكن حبك وحدَه قلبي.
يا إلهي،

منحتني الحياة،
وأعطتني بالأعاجيب

فجعلتني على صورتك ومثالك
وأعطيتني من لدنك، نعم النطق والعقل والخيال،
وسلّطتني على كلّ ما في الدنيا
من حيوان ونباتٍ وجَمادٍ،
فها أنا آت إليك،
لا تخذّلني، يا ربّ.

ها قد هزمت مواكب ضِعفي وتردّدي،
وتوجّهت إليك منصّوراً،
لنعود النُصرة إلى أوراق نفسي،
فأنت وحدك، يا إلهي، الماء المحيي،

التي مِنْهَا أَوْدُ أَنْ أُسْتَقِي ،
فَأَحْيَا إِلَى الْأَبَدِ .

كَانَ يَوْسُفُ يَمْشِي بِخَطًى ثَابِتَةً ، وَقَدْ وَصَلَ إِلَى الذُّوقِ . تَوَقَّفَتْ
الْثُلُوجُ عَنِ الْهُطُولِ . صَادَفَ هُنَاكَ بَعْضَ الْأَكَارِينِ فَحَيَّاهُمْ وَاسْتَأْنَسَ
بِهِمْ . حَثَّ السَّيْرَ هَرَبًا مِنْ فُضُولِ الْأَلْسِنَةِ فَسَبَقَهُمْ بِمَسَافَةِ طَوِيلَةٍ . وَمَا
هُوَ بَعْضُ الْوَقْتِ حَتَّى كَانَ فِي تَوَلَا وَانْتَقَلَ مِنْهَا إِلَى عَبْدِ لِي . أَخَذَ مِنْ
ثُمَّ يَنْحَدِرُ عَلَى سَبِيلِ ضَيْقٍ ، مُتَعَرِّجٌ بَيْنَ الصَّعْتَرِ وَالْعَوْسَجِ وَاللَّزَابِ
وَأَشْجَارِ الْكَرْمَةِ وَالزَّيْتُونِ وَالْإِجَاصِ بِاتِّجَاهِ دِيرِ كَفِيْفَانَ . وَهَنَا أَطَلَّتْ
عَلَيْهِ خَيَوطُ الْفَجْرِ الْبَاسِمِ مِنْ وَرَاءِ الْجِبَالِ الْعَالِيَةِ .

رَقَصَ قَلْبُهُ فَرَحًا . وَلَمَّا وَصَلَ اتَّجَهَ إِلَى الْكَنِيسَةِ وَسَجَدَ يُصَلِّي
خَاشِعًا وَشَعَرَ بِغَبِطَةٍ لَا تُوصَفُ . وَطَلَبَ إِلَى اللَّهِ أَنْ يُلْهِمَ رَئِيسَ الدَّيْرِ
كَيْ يَقْبَلَهُ مُبْتَدَأً .

جئت لأبقى

«لا يُفتر على ما أنتم عليه من الصَّلاح. فإنَّ ملكوت الله ليس أكلاً ولا شرباً بل هو برٌّ وسلام وفرح في الرُّوح القدس لأنَّ الذي يخدم المسيح بهذا هو مرضيٌّ عند الله وممدوح عند النَّاس. فلنَتَّبِع ما هو للسَّلام وما هو لبُنيان بعضنا لبعض».

رومة ١٤: ١٦ - ١٨

إنْتهى الرهبان من صلوات الصَّباح وانصرف كلُّ منهم إلى إتمام العمل الموكول إليه.

سأل يوسف عن الأب الرِّئيس فاستوقفه وانحنى أمامه باتِّضاع وقبلَ يده وقال :

— أنا بحاجة إليك ، يا أبت .

— تعال ، يا بُنِّي ، اتبعني .

تبع يوسفُ رئيسَ الدَّيرِ صاغِرًا فأدخَله إلى غرفةِ الأستقبال ولَمَّا استوى بها المكان قال الأبُّ الرئيسَ :

— من أنت؟

— ولدُكم يوسفُ بن اسطفان بو هيكل ، من لِحفد.

— بَمَ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَخدَمَك؟

— أودُّ ان أدخَلَ سلكَ الرّهبانية. جئتُ طالِبًا.

— هل أعلمت والدِيك بنيتك؟ ماذا قالَا لك؟

— والداي متوفيان.

— أليس لك أنسباء؟

— بلى ، يا أبت ، إخوتي ثلاثة وأعمامي.

— هل أخبرتهم بمجيئِك؟

— كلاً. هربت في أثناء اللَّيل وجئتُ سيرًا على الأقدام.

— في مِثْل هذا الطَّقس!

— ...

— لماذا تصرَّفت هكذا، يا يوسف؟ أَلَمْ يَكُن من الأفضل أن

تُطلِعَهُم على ما أنت عازِم عليه؟



دير كفیفان

– الطَّبيعَة البشريَّة ضعيفة وسريعة العَطب. والمثلُ العامِّي يَقولُ :
«عقلُك براسك تنين ب ديروك». خِفْتُ أن يعارِضوني ويقفوا حَجَر
عثرَةٍ في طَريقي.

– الرّهْبانِيَّة، يا بنيّ، نِير ثَقِيل، فهل أنت مصمّم على إكمال
الطريق؟

– أنا أعرف ما هي الرّهْبانِيَّة. وقد رأيت عن كُتب رهبان سَقي
رُشْمًا وأعجبتني حياتهم. جئتُ إلى هذا الدَّير بعد أن أَسْتشرت
كِبَارَهُم لأكرّس نفسي للرب وأحمل الصليب مع سيّدنا يسوع المسيح.
تأكّد، يا مُحترم، إن مجيئي ليس نزوة عابرة.

لَمّا تأكّد الرئيس عَزَمَ هذا الشَّاب دخولَ سلك الرّهْبانِيَّة، مع
إدراكه الكامل لجميع الصُّعوبات التي سوف تعترضه. قال له :

– أهلاً وسهلاً بك، أخاً مبتدئاً. ليُعنك الرّبّ ويثبّتك في
دعوتك. أرجو أن تكون قُدوة صالِحَة للجميع.

– أرجو، أن أَسْتَطيع إرضاء الرّبّ إلهنا وإرضاءك، يا أبتِ.
بعد ثمانية أيّام، ألبس رئيسُ دير كفيفان، الأب واصاف
الكفوني، يوسف ثوبَ الابتداء واتخذ له أسم اسطفان جدّه وذلك
عام ١٩٠٥.

إِنْتَشَرَ خَبْرُ اخْتِفَاءِ يَوْسُفَ فِي لِحْفِدِ بَسْرَةِ الْبَرَقِ. فِي صَبَاحِ الْيَوْمِ
الثَّانِي، نَهَضَ إِخْوَتُهُ مِنَ النَّوْمِ فَوَجَدُوا فَرَّاشَهُ خَالِيًا وَمُرْتَبًا كَالْعَادَةِ
فَتَسَاءَلُوا:

— أَيْنَ ذَهَبَ... —

اضْطَرَبُوا لِلْوَهْلَةِ الْأُولَى. وَوَصَلَ الْخُورِيُّ وَالْمُخْتَارُ وَأَعْمَامُهُ وَبَعْضُ
الشُّبَّانِ وَتَدَاوَلُوا فِي الْأَمْرِ.

قال نعمة الله:

— لِمَاذَا تَرَكْتَ الْبَيْتَ دُونَ أَنْ يَقُولَ لِأَحَدٍ مَنَّا كَلِمَةً؟ —

قال المختار:

— لَعَلَّهُ سَبَقَكُمْ إِلَى الْحَقْلِ.

أجابهُ الْخُورِيُّ:

— مَاذَا بَاسْتَطَاعَتِهِ أَنْ يَعْمَلَ فِي الْحَقْلِ فِي مِثْلِ هَذَا الْيَوْمِ، أَلَا
تَرَى يَا مُخْتَارُ أَنَّ الثَّلَجَ... —

— لَكَ الْحَقُّ، يَا مُحْتَرَمٌ، نَسِيتُ، نَعَمْ مَاذَا يَفْعَلُ فِي... —

قال سركيس:

— لَعَلَّهُ قَصَدَ إِحْدَى كُنَائِسِ الْقَرْيَةِ أَوْ ذَهَبَ إِلَى سَقِي رَشْمِيَّا لَزِيَارَةِ
الرُّهْبَانِ.

قال المختار:

— إطمئنوا، سنعرفُ الحقيقة بعد قليل.

وخرج إلى الباب حيث يتجمهر بعضُ شبَّان القرية تحت العريشة.

ونادى:

— عبُود...

— نعم، يا مختار.

— خُذ خمسةً من الشبَّان واطلبوا يوسفَ في كنائس القرية ولدى

رُهبان السقي. وعودوا إلينا سريعًا بالخبر اليقين.

قفز عبُود ورفاقه إلى الطريق وتوزَّعوا في مختلف سُبُل القرية.

مَشَّط الخوري واصف لحيته الطويلة البيضاء بأصابعه وتنح

قائلاً:

— كلنا نعرفُ يوسفَ وتقواه. قلبي مطمئنٌ من ناحيته. وأعتقدُ في

قرارة نفسي، أنه قصد دير الأبتداء في كفيان للانتفاء إلى الرهبانية.

قال هيكل:

— نحن نستغربُ سلوكه هذا، يا محترم. لم يكن يخافُ أحدًا منا،

ولم يعرض هذا الأمر يومًا علينا إلى جانب تمتُّعه بكامل حرَّيته باختيار

الطريق التي يشاء أن يسلكها في الحياة. فبدخوله سلك الرهبانية يكون

قد تَمَّ أمنية المرحومة والدتي. فإذا كان هذا صحيحًا فهنيئًا له. لقد
أختار السَّبيل الأفضل للوصول إلى هدف الإنسان الحقيقي في
الحياة: خلاص نفسه.

ولكن كيف تتأكَّد أنه دخل الدير؟

قال الخوري:

— لا عليك، يا بني، دعنا الآن ننتظر عودة الرِّسل.

وتشعَّبت الأحاديث وتناولت مواضيع شتى وتجنَّب الكلُّ
الحديث عن موضوع الساعة. ودار الكلام حول الأسعار والأراضي
والثلج وعاميَّة لحفد.

— أخبرنا، يا أبا نخول، عن تلك...

ولكنَّ وصول عبُود ورفاقه منعه عن البدء بسردِّ وقائع تلك
العاميَّة.

— ماذا، يا عبُود.

— يوسف ليس في القرية، يا محترم. وقد اكتشفنا آثار أقدام تتَّجه
ناحية ميفُوق. ومن المرجَّح أنَّه قصد دير كفيفان إذ سبق وأطلع
الرَّهبان في السَّقي عن رغبته الأكيدة بالترهُّب.

قال نعمة الله:

– سَأَقْصِدُ السَّاعَةَ دِيرَ كَفِيفَانَ.

أَجَابَهُ الْمُخْتَارُ:

– مِنْ الْأَفْضَلِ ، يَا نِعْمَةَ اللَّهِ ، أَنْ نَتَرِثَ حَتَّى الْمَسَاءِ ، فَإِنْ لَمْ يُعَدِّ سَأُرَافِقُكَ.

وَقَالَ هَيْكَلُ وَسْرَكِيسَ:

– لِإِذَا لَا نُرَافِقُكُمْ ، فَتَبَدُّو لَنَا الطَّرِيقُ قَصِيرَةً وَتَتَّحَ لَنَا فُرْصَةٌ الْاجْتِمَاعِ بِهِ.

– كَمَا تَشَاءُ أَنْ.

– إِلَى الْغَدِ إِذَا.

– نَعَمْ ، إِلَى الْغَدِ.

* * *

نَهَضَ الْإِخْوَةُ الثَّلَاثَةُ بَاكِرًا فِي الْيَوْمِ الثَّانِي وَسَارُوا بِرَفْقَةِ الْمُخْتَارِ إِلَى دَيْرِ الْإِبْتِدَاءِ فِي كَفِيفَانَ.

وَلَمَّا وَصَلُوا طَلَبُوا مُقَابَلَةَ رَئِيسِ الدَّيْرِ فَحَضَرَ وَرَحَّبَ بِهِمْ.

– بِمَ أُسْتَطِيعُ خِدْمَتُكُمْ؟

– نَوَدُّ يَا مُحْتَرَمُ أَنْ نَسْتَوْضِحَ كُمْ أَمْرًا.

- تفضّلوا.
- نحنُ أولاد اسطفان نعمة.
- أهلاً بكم.
- هل أتى أخونا يوسفُ البَارحة إلى الدَّير؟
- هو ما تقول.
- وهل قبلتموه راهباً مبتدئاً؟
- نعم، ولستُ نادماً، فهو من خيرة المبتدئين.
- نعلمُ ذلك، ولا نُشيعُ سرّاً إذا أخبرناك، يا محترم، أنَّ الجميع في لحفد، يُنادونه «يوسفُ القدّيس» لتّقواه وسلوكه المثاليّ.
- ماذا هناك إذا؟ الله دعاهُ فاستجابَ لندائه.
- هربَ يوسفُ ليلاً، ولم يسبقِ أنَّه أبدى لنا رغبتهُ بدخول سِلك الرّهانيّة.
- إنَّ أحاكم رهيفُ الإحساس، فقد خشيَ إن هو أخبركم بنيته أن تعارضوه، بالإضافة إلى أنَّه شاء أن يوفرَّ عليكم آلام الفراق. وكلُّنا يعلم أنَّ الفراق صعب.
- هل بأسْتَطاعتنا أن نجتمع به لبعض الوقت؟

– كيف لا؟ ولكنَّ يوسفَ لن يعودَ إلى البيتِ. فقد اختبرتُ
صدقَ دعوتهِ وثباته. ويقول المثل: «الكتابُ يُقرأ من عنوانه».
نهضَ الأبُّ الرَّئيسُ ونادى أحدَ الإخوةِ وكلفه أن يطلبَ من
يوسفَ المَجيءِ إلى غرفةِ الاستقبالِ.
– إنه في الكنيسةِ يُصلي، يا أبانا، وقد تطوَّلَ صلاته.
– اذهب وقل له إنَّ الأبَّ الرَّئيسَ يطلبه ويودُّ أن يكلمه لبضعِ
دقائقِ.

لَمَّا دخلَ يوسفُ قاعةَ الاستقبالِ لم يُفاجأَ بمراىِ إخوانه والمختارِ.
وتذكَّرَ بيتهِ وكلَّ ما تركَ وراءه، ولكنَّه تغلَّبَ على عاطفتهِ البشريَّةِ
واصطنعَ اللامبالاةَ فلم يقترب من إخوانه.

– لماذا هربت من البيتِ، يا يوسفُ؟

– هي مشيئةُ الله. أنا هنا وسأبقى.

– أهكذا تتركنا وحدنا نش... .

– قلتُ لكم، لا تحاربوني، لن أبارح الدَّيرَ بعد اليوم. لكلِّ
إنسانٍ في هذه الحياة طريق. لقد اخترت يسوعَ نصيباً لي وقد طَلَّقتُ
العالمَ ولن ألتفتَ ورائي. كنتُ أنتظرُ منكم أن تشدُّوا عزمي فإِذا
بِكُم...

– ثِقْ، يَا أَخِي، إِنَّا مَا جِئْنَا إِلَى هَذَا الْمَكَانِ الْمُقَدَّسِ، إِلَّا
لنَطْمِئِنَّ عَلَيْكَ وَنَمْتَحَنَ دَعْوَتَكَ. هَنِيئًا لَكَ بِالْقِسْمَةِ الَّتِي اخْتَرْتَهَا
لنَفْسِكَ، فَهِيَ الْبَاقِي.

نَهَضَ الْإِخْوَانُ الثَّلَاثَةُ وَالْمُخْتَارُ وَودَّعُوا الْأَبَ الرَّئِيسَ وَأَنْصَرَفُوا
وَالدَّمَعةُ فِي أَعْيُنِهِمْ وَعَادُوا إِلَى الْحَفْدِ.

الابتداء

«وأحسَّ أن لا شيء في العالم، من الآن فصاعداً، يمكنه أن ينزع قلبه من الواقع السَّامي الذي كان يبدو له. لا شيء، لا الإنسان في ما عنده من فردية وروح تدخّل (لأنه كان يحتقره هكذا)، لا السَّماء ولا الأرض في العلوّ، في العرض، في العمق، في القوّة (لأنه إليها كان يفرّج دوماً)».

تياردي شاردن: نشيد الكون

قضى الأخ اسطفان عامي الأبتداء في دير كفيغان. وقد أسعده الحظّ بأن يكون معلّمه الأب أغناطيوس الثُّوري الذي كرّس نفسه من أجل خدمة الله والاعتناء بطلابه المبتدئين تلك الغرسات اللدنة في

بستان الرَّبِّ. فكان ملاكًا بجسم إنسان. نذر كل قواه لخدمة رسالة الرهبانية. وقد أفرغ في قلوب من أعطي أن يكون مسؤولاً عنهم من الإخوة، التعلّق بالرهبانية ومحبة الله والقريب محبة حقيقية، كما بشر بها السيّد المسيح، فنشأوا على التقوى والتعبّد وأعمال البر وممارسة الفضائل الإلهية وقد امتلأت قلوبهم بالإيمان والتوق إلى الاتحاد بالله تعالى واحتقار كلّ ما هو دنيوي لأنّه إلى زوال.

فما أسمى دعوة الرّهبانية وما أعظم استحقاق الرّاهب في عيني الرّبِّ، فإنّه يملأ إرادته يترك كلّ مغريات الدُّنيا، ويتنازل عن إرادته للغير، ويقبل أن يعيش معزولاً بين إخوان له، عن أسرته وأنسابه وأهل قريته، قانعاً بالفقر والتّقصّف نصيباً، مزدرياً المآل وما يوفّره من متع وإن كاذبة للإنسان، كارهاً أجماد العالم، متعلّقاً بأهداب الفضيلة مثبتاً عينيه وأفكاره بالله وآلام المسيح مكرّساً لها كلّ دقائق حياته. حقاً إنّ الانتماء إلى الرّهبانية بطلوة فائقة.

كان يوسف يمرّ كلّ يوم أمام جثمان الأب نعمه الله الحرديني الذي كان لا يزال مكشوفاً يومئذ، لم يمسه فساد، فيطلب منه أن يعينه، ويستمدّ منه قوّة ودفعاً يساعدانه على السير قدماً على طريق التكمّل الديني والقداسة. وقد خضع لقوانين الرّهبانية خضوعاً أعمى. وكان يتيمّ جميع ما يُطلب منه بأمانة وجدّ دون أن يتذمّر أو يشكو. ولم

يتردد يوماً أو يتساءل لماذا يقوم هو بهذا العمل وليس سواه. فكان بين الإخوة رفاقه المثال الناطق الحي للتقوى والنشاط، فحين يمرّ يضوع منه عطر القداسة فهي تلبسه لبساً وتبدؤ في قسّات وجهه وحركاته وابتسامته الملائكية. وقد حاول جميع رهبان الدير احتذاء خطاه على طريق محبة الله وممارسة الفضائل الإلهية.

تحلّى يوسف بإيمان لا يُدانيه إيمان فأحبّ الله محبة دفعته لأن يُكرّس معظم أوقاته للتعرف إليه تعالى والبحث عنه في حقل الرهبانية من أجل الاتحاد به والذوبان فيه حتى يُصبح باستطاعته أن يقول بلسان بولس الرسول: «لست أنا الحيّ إنّما المسيح هو الحيّ فيّ وما لي من الحياة في الجسد، أنا حيّ في الإيمان بابن الله الذي أحبني وبذل نفسه دُوني»^(١). وأمتاز أيضاً بعفة لسانه وطهارة جسده وفكره، فكان صموتاً لا يتكلّم كلمة بطالة، وحين يتكلّم يخفض صوته فلا يصيح ولا يجرح ولا يتنقّد. ولم يجرب مرة أن ينظر إلى امرأة.

عرّف أيضاً بإرادة صلبة في مقاومة الشرّ وغيره متأجّجة وتواضع وديع مقرون بطاعة عمياء ورقة في الطّباع ولين جانب ومحبة سمحاء للقريب. فقد جرّد نفسه من الميول البشرية وعاش لطيفاً لا يعرف الحقد والبغضاء والغضب إلى قلبه سبيلاً. يجانب المماحكة

(١) غلاطية: ٢: ٢٠.

والخلاف والشرّ. فإذا حدث وتشاجر فريقان عمَد فوراً إلى إصلاح ذاتِ البين بينهما بحُججه المُقنعة ولُطفه ووداعته وفِطنته. هذا إلى جانب محافظته بدقّة على قوانين الرّهبانية فلم يجرب مرّة أن يتناساها أو يخالفها فهي حِزام النّجاة لديه.

أدرك قيمة الوقت وأنّ الحياة قصيرة، فلم يدع دقيقة واحدة تذهب سدى. فعندما لا يذهب إلى الكنيسة أو الحقل ينصرف إلى صنّع المحاريث والأنيار إذ كان له بعض الإلمام بالتجارة. وعندما لا يكون في الكنيسة لا ينقطع عن الصّلاة. وقد عاهد نفسه أن يتلو مسبحة الوردية مرّات عديدة كل يوم لأنّ من يكرّم السيّدة العذراء لن تطالهُ يد الهالك إذ لا يقوى عليه إبليس.

كان الأخ يوسف عادلاً مع الغير. وممّا يؤثّر عنه أنّه كان مناراً للأجراء التّابعين له. ومن أجل هذه الفضائل والصفّات تعلّق به رؤسأؤه وجميع عارفيه واحترموه وحاز ثقتهم وتنازع رؤساء الأديرة وجوده لينيروها بنور فضائله وينالوا بركة صلواته.

كان يتمتّع بجلدٍ على الصّلاة والتأمل فهو يبكر في النّهوض صباحاً ويتّجه إلى الكنيسة لمُباشرة الصّلاة والتّسبيح. وبعد إتمام الفروض المتوجّبة عليه يقود أبقار الدير ويذهب إلى الحقول ليحرثها. يَبني حفا في الجّاللي المتهدّمة ويسمّد الأشجار ويقلمها ويعتني بالكروم

ويجني الأثمار ويغرس الأغراس الجديدة ويقتلع العليق وباقي النباتات البرية التي تُضرّ بإنتاج الأرض.

والأرض في لبنان خصبة كل الخصب ويعتقد الأخ اسطفان أنه إذا خدَمَتها خدَمَتَكَ وأطعمَتَكَ فكفها مبسوطة دائماً للعطاء. بين الرهبان والأرض معرفة قديمة. فللرهبان عمومًا عملان أساسيان: الله والأرض. هو يحبُّها كليلها ويقضي في خدمتها أوقاتاً طيبة. فالله غايته وحياته والأرض وسيلة للعيش فهي له بمثابة البؤبؤ للعين.

اتكأ الأخ اسطفان ذات يوم، عند الغروب، على جذع شجرة سنديان، وغمَسَ عينيه في الأفق البعيد، متأملاً عظمة الخالق في ما خلق. لقد تشربَت روحُه نورًا وشفافية من بهاء شمس لبنان. كانت أشعة الشمس في تلك اللمسية تنعكس على ثلج جبلنا بهجةً وجمالاً. أشعة الشمس تشعل أطراف الغيوم فتتوهج بحيرات سحر في كبد السماء. ما أغرب فنون أشعة الشمس تلون منحدرات الجبال وصخورها ورواسيها فتزيدها سحر ألوان وروعة ومهابة ممَّا يرفع النفس إلى الباري تعالى ويحضُّها على الصلاة والتسبيح فتزداد تألؤًا بندى قلب المسيح وحرارة شوق المتعبّد.

وقف الأخ مُسمَّرًا في مكانه مأخوذًا بلذة التواصل العقلي مع

الله.

لله من ذلك الزَّمن البعيد يُشعل في الرُّوح نورَ الإيمان ويُبذر في العقل شموخ اليقين. يُعطينا المعرفة فن سارَ بهديها امتلاً بالغبطة والسَّعادة ومن خالفها فرَّغ قلبه وعقله إلا من الحقد والشك وكان الموت نصيبه.

ورفعُ باصرِيه إلى السَّماء مسبِّحاً الربَّ بلسان داوُد النبي ومنشداً
المزمور ٣٣.

ولمَّا انتهى من إنشاد التَّسبيح عاد إلى الدَّير ودخل إلى الكنيسة
فقد اشتاق أن يلتقي وجه الله .

* * *

ذات يوم من عام ١٩٠٧ اجتمع الرُّهبان لإجراء الانتخابات
الأخيرة على قبوله في صفِّ الرُّهبان فكانت نتيجتها قسماً صافياً
كأختيها السَّابقتين إذ اقترع جميعُ الحاضرين لِصالحه. وكان الأُخ
أسطفان يُدأوم على الصَّلاة والصوم وإماتة غرائز الجسد بأعمال
التقشف كي يستحقَّ نعمة إبراز النُّذور.

وأقام الأب واصاف الكفوني، رئيسُ دير كفيفان، قدَّاساً
إحتفالياً، لمناسبة قبولِ نذور المبتدئين. دخل هؤلاء في السَّاعة المقرَّرة
من باب الخزانة إلى صحن الكنيسة حفاة الأقدام وقد ارتدى كل
منهم قميصاً رقيقاً دلالةً على أنَّهم تعرَّوا من روح هذا العالم الفاني

وبهَرَجَاتِهِ الرَّائِفَةِ. تَقَدَّمُوا وَسَجَدُوا أَمَامَ الْقُرْبَانِ الْمُقَدَّسِ مَكْتُوفِي
الْأَيْدِي، وَقَدْ حَنُوا رُؤُوسَهُمْ إِجْلَالًا لِلْعِظْمَةِ الإِلَهِيَّةِ، وَلَكِنَّهُمْ جَوْقَةٌ
مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْأَبْرَارِ. ثُمَّ نَهَضُوا وَوَقَفُوا صَفًّا وَاحِدًا، أَمَامَ الْمَذْبَحِ
مَتَّيِّتِينَ لَذِيحِ ذَوَاتِهِمُ الْإِنْسَانِيَّةِ فِي سَبِيلِ تَكْرِيمِ السَّيِّدِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ،
ذَلِكَ الْحَمَلِ الطَّاهِرِ الَّذِي قَدَّمَ ذَاتَهُ لِأَفْتِدَاءِ الْبَشَرِ وَتَكْفِيرًا عَنْ خَطَايَا
الْإِنْسَانِيَّةِ جَمْعَاءَ.

«بَدَأَتِ الرَّتْبَةُ فَأَفْرَغَ عَلَيْهِمُ الرَّئِيسُ الْإِسْكِيمُ الْمَلَائِكِيَّ وَالثَّوْبَ
الرَّهْبَانِيَّ وَمِنْطَقَةَ الْجِلْدِ وَالْحِذَاءَ وَأَبْرَزُوا النُّدُورَ الرَّهْبَانِيَّةَ الْمُؤَبَّدَةَ أَمَامَ
حِشْدٍ مِنَ الْحُضُورِ»^(١).

كَرَّسَ الْأَخَ اسْطِفَانُ كُلَّ جُهِودِهِ لِلتَّعَرُّفِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَإِتِمَامِ
مَشِيئَتِهِ عَلَى أَكْمَلِ وَجْهِهِ فِي سِلْكِ الرَّهْبَانِيَّةِ وَانْصَرَفَ بِكَلِمَتِهِ إِلَى تَأْمُلِ
حَيَاةِ سَيِّدِنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، فَانْحَفَرَتِ الْآمَةُ فِي رُوحِهِ وَأَعْمَاقِ قَلْبِهِ.
وَسَلَّكَ مِنْ أَجْلِ الْوُصُولِ إِلَى هَدَفِهِ طَرِيقَ التَّكْمُلِ الدِّينِيِّ فَبَلَغَ شَأْوًا
بَعِيدًا عَلَى طَرِيقِ الْكَمَالِ الرَّهْبَانِيِّ. وَكَانَ قَبْلَ الْقِيَامِ بِأَيِّ عَمَلٍ يَقُولُ:
«اللَّهُ يَرَانِي».

(١) الأب يوسف خشان، ابن الضيعة، ١٩٧٥، ص. ٢٧.

الصلاة وليس الأكل

«وَأَذْكُرْ خَالِقَكَ فِي أَيَّامِ شَبَابِكَ قَبْلَ أَنْ تَأْتِيَ أَيَّامُ
السُّوءِ وَتَرُدَّ السَّنُونُ الَّتِي فِيهَا تَقُولُ لَيْسَ لِي فِيهَا
لَذَّةٌ».

الجامعة ١٢ : ١

إِهْتَمَّ اللَّبْنَانِيُّونَ قَدِيمًا اِهْتِمَامًا بِالْعَا بِأُسْبُوعِ الْمَرَا فَع. فِي تِلْكَ
الْأَيَّامِ السَّعِيدَةِ، كَانَ أَجْدَادُنَا يَعِيشُونَ عَلَى الْحُبُوبِ وَالْحُضَارِ
وَالْأَعْشَابِ الْبَرِّيَّةِ، وَلَا يَذُقُونَ طَعْمَ اللَّحْمِ سِوَى فِي مِثْلِ هَذَا
الْأُسْبُوعِ مِنَ السَّنَةِ. لِذَلِكَ كَانَتْ كُلُّ أُسْرَةٍ تَشْتَرِي فِي شَهْرِ تَشْرِينَ
الْأَوَّلِ حَمَلًا أَوْ جَدِيًّا، وَتَعْتَنِي بِهِ وَتَعْلِفُهُ حَتَّى يَسْمُنَ وَتَعْمَدَ إِلَى ذَبْحِهِ
فِي أَحَدِ أَيَّامِ ذَلِكَ الْأُسْبُوعِ. وَلِهَذَا الْمُنَاسِبَةِ تَجْتَمِعُ الْإِسْرَةُ حَوْلَ مَائِدَةٍ
سَخِيَّةٍ اعْتَلَاهَا كُلُّ مَا لَدَى وَطَابٍ مِنَ الْمَأْكَلِ كَالْكَبَّةِ النَّيِّئَةِ وَالْمَشْوِيَّةِ

والضَّلَع المحشي والقصبه واللحم المشوي وما إليها. وتنزل عن الرفوف مخبزات النِّبذ المعتق وقناني العرق البلدي. وغالبًا ما يُدعى الأنسباء والأصدقاء للمشاركة في هذه المآدب المرفيَّة.

إنَّ الأحد الأوَّل من الأسبوع يُدعى أحد الذَّبَّيح والأحد الأخير أحد قطع الزَّفر حيث يمتنعون بعده عن تناول اللحوم. ويجمعون ما تبقى من الذَّبَّيْحَة ويحولونه إلى «قورما» يعبُّونها في الأطر ميزات الفخاريَّة إلى حين الحاجة إليها.

وما إن يبدأ الصَّيام حتَّى ينصرف الأهلون إلى المآكل القاطعة كالجدرة والبرغل والفتوش والملتبات والحشائش كالهندباء ورأسو بعجو والعربانيَّة وغيرها ممَّا ينبت في أرضنا الطيِّبة.

جميع أفراد العائلة يحفظون الصَّيام بدقَّة ما عدا الأطفال الذين لم يبلغوا السَّابعة من عمرهم. وينقطع بعض المغالين عن استعمال الزيت فلا يتناولون سوى الخضار والحشائش النيئة أو المسلوقة.

والمرفَع مناسبة اجتماعيَّة هامة، ففيه تجتمع الأسر وتقضي مجتمعة أوقاتًا هانئة فتجدد أواصر المحبة وتشدّد. وما أحلى وأطيب اجتماع شمل الأقارب والمحبين.

رأى سرُّكيس أن يذهب إلى دير القطارة حيث كان أخوه اسطفان قد ألحق منذ بعض الوقت ليطلب له إذنًا من رئيس الدَّير

كي يقضي يومًا أو اثنين فيجتمع بإخوانه وأعمامه وأهل القرية ويتناول معهم بعض المأكّل قبل بدء الصّيام. وصل سرّكيس إلى الدّير المذكور الكائن على قمّة جبلٍ يُشرف على ميفوق وإلى مسافة قريبة منها.

كان الأخ اسطفان في الكنيسة فجلس أخوه ينتظر بعد أن نال إذن الرّئيس ليصحبهُ معه إلى لحفد القرية. فأقبل بثوبه الرّهباني بعد وقتٍ طويل لمُقابلة أخيه، وسهات البراءة والقداسة مرتسمة على تقاطيع وجهه الأسمر. تعانق الأخوان بحرارة.

— ما اللّذي أتى بك، يا أخي إلى هنا؟
— شوقي إليك.

وكان حديثٌ عن أخويه نعمة الله وهيكل والصّلاة ولحفد والزّراعة تخلّلتها الضّحكات البريئة.

قال سرّكيس أخيرًا:

— أنت تعرّف، يا أخي، إنّ هذا الأسبوع هو أسبوع المرافع.
— وقانا الله من شرّ هذا الأسبوع.

— ماذا؟

— إنّ هذا الأسبوع هو أسبوع الموتى، وعلينا أن نتذكّر من سبّقنا إلى دنيا الحُلود ونصلي قدر استطاعتنا على نيّة من لا يزال معذبًا منهم.

– لك الحقّ، يا أخ اسطفان، ونحنُ لن ننسى هذا الواجب.

– إذّا، ماذا تريد منّي؟

– ذبحنا البارحة خروفاً سميناً، جئتُ أدعوك لتذهب معي إلى البيت في هذه المناسبة. وقد نلت لك إذناً من حضرة الأب، رئيس الدير، بهذا الخصوص.

– أشكرُك، يا أخي، حُسنَ رعايتك وأهتمامك بي ولكنّي آسفٌ شديدٌ الأسفَ لاضطراري الامتناع عن تلبية دعوتك هذه.

– لماذا ترفض وتقاليدنا، منذ القدم، تدعو إلى مثل هذا الاجتماع؟

– يا أخي، في مثل هذه المناسبات يُكثرُ النَّاسُ الأكلَ والشَّربَ فيخرجون عن جادة الصَّواب وينسون الله والموتى.

– لا عليك فنحنُ وأعمامك، كما نعرف، لا نبالغ في التَّعاطي مع الأكلِ والخُمور...

– ولكن في القرية من يفعل. أرغب في البقاء هنا، كي أصلي وأعوض بعض الشيء عن الإهانات التي يلحقها الآخرون بالقلب الإلهي وخاصّة يوم «خميس السَّكاري».

– ألن تبدل رأيك، يا أخي؟

– كلاً أرجوك.

– لقد أحرزْتُ قلبي بِرِفْضِكَ.

– لا يُحْزِنُ القلبُ سِوَى الخَطِيئَةِ. وَأَنْتَ تَعْرِفُ أَنَّي مِنْذُ صَغَرِي، أُحِبُّ الِهُدُوءَ وَالْوَحْدَةَ. فَالرَّاهِبُ رَجُلٌ صَلَاةٍ. وَهَذَا الِاسْبُوعُ هُوَ أُسْبُوعُ صَلَاةٍ، لَا أُسْبُوعُ أَكْلِ. عُدْ مِنْ حَيْثُ أَتَيْتَ وَقَبْلَ عَمَلِ الْجَمِيعِ وَصَلُّوا مِنْ أَجْلِي. إِنْ عَادَةَ الْإِكْثَارِ مِنْ أَكْلِ اللَّحْمِ فِي مِثْلِ هَذَا الِاسْبُوعِ، عَادَةُ وَثْنِيَّةٍ، وَأَنَا أَكْرَهُ الْعَوْدَةَ إِلَى وَثْنِيَّةِ الْإِنْسَانِ الْأَوَّلَى. كُلُّ مَا أَرْجُوهُ أَنْ تَثَابَرُوا عَلَى مَحَبَّةِ اللَّهِ وَالصَّلَاةِ وَأَنْ تُرَبُّوا أَوْلَادَكُمْ عَلَى الْبِرِّ وَالْقَدَاسَةِ. التَّجَاوُوا إِلَى مَرْيَمَ الْعَذْرَاءِ فِي كُلِّ ضَيْقَاتِكُمْ وَاحْتِيَاجَاتِكُمْ فَهِيَ تَسْمَعُ لَكُمْ وَتَسْتَجِيبُ طَلِبَاتِكُمْ. رَافَقَتْكَ السَّلَامَةُ.

– مَاذَا، أَتُفَارِقُنِي بِمِثْلِ هَذِهِ السَّرْعَةِ؟

– أَعِذُّنِي، يَا أَخِي، إِنَّ أَعْمَالِي كَثِيرَةٌ وَالزَّمَانُ قَصِيرٌ. وَبَعْدَ قَلِيلٍ يَحِينُ مَوْعِدُ الصَّلَاةِ.

بعد أن بارح سركيس الدَّير، التقى الأَخُ اسطِفَانُ الرَّيْسَ فَقَالَ هَذَا مَدْهُوشًا:

– أَمَا زِلْتَ هُنَا، يَا أَخُ اسطِفَانُ، لَقَدْ أَذَنْتُ لَكَ بِالذَّهَابِ إِلَى الْحَفْدِ. فَمَا بِالْكَ؟

– عَفْوًا، يَا أَبَتِي، لَا أَرْغَبُ الْبَتَّةَ فِي الذَّهَابِ إِلَى الْحَفْدِ.

– لماذا؟ أتحاف النَّاس؟

– ليس في الأمر خوفٌ أو عَدَمُهُ، ولكنِّي أكره الأَجتماعاتِ العالميةَ بالإضافة إلى أَنِّي أَشعرُ خارجَ الدَّيرِ بالضيقِ والأَنزعاجِ. وإنَّ أُمَّنا الكنيسةَ خَصَّتْ هذا الأسبوعَ بالموتى. وهُنَاكَ، أَنفُسٌ كَثيرةٌ معذَّبةٌ تحتاجُ إلى صلاةٍ وتكفيرٍ.

– أنا فخورٌ بِكَ. إلى أينَ أَنتَ ذاهِبُ الآن؟

– إلى الكنيسة.

– هيَّا بِنَا، سَأُرافِقُكَ وأُشاركُكَ الصَّلَاةَ.

الراهب

«الْمُتَعَقِّلُ فِي أَمْرِهِ يَفُوزُ بِالْخَيْرِ وَالْمُتَوَكِّلُ عَلَى الرَّبِّ
طُوبَى لَهُ» .
الأمثال ١٦ : ٢٠

يَنْهَضُ الْأَخُ اسْطِفَانُ بَاكِراً مِنْ فِرَاشِهِ وَيَتَجَّهُ تَوّاً إِلَى الْكَنِيسَةِ
لِيُبَاشِرَ صَلَوَاتِهِ بِانْتِظَارِ بَدْءِ الْقَدَّاسَاتِ ، فَيَحْضُرُهَا جَمِيعاً بِحَرَارَةِ
وَإِيمَانٍ وَلَا يَدْعُ وَاحِداً مِنْهَا يَفُوتُهُ . إِنَّهُ يُوَزِّعُ سَاعَاتِ يَوْمِهِ بَيْنَ التَّأَمُّلِ
«مِفْتَاحِ مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ» وَتِلَاوَةِ مَسَبِّحَةِ الْوَرْدِيَّةِ وَأَدَاءِ الْفُرُوضِ
وَالصَّلَوَاتِ الرَّهْبَانِيَّةِ وَزِيَارَةِ الْقُرْبَانِ الْمُقَدَّسِ وَالْعَمَلِ فِي أَرْزَاقِ الدَّيْرِ أَوْ
فِي حَانُوتِ التَّجَارَةِ وَإِنْجَازِ الْمَهَامِ الَّتِي يَكْلِفُ بِهَا . فَلِلْوَقْتِ ثَمَنٌ
وَالدَّقِيقَةِ الَّتِي تَنْهَجِرُ فِي بَحْرِ الزَّمَنِ سُدًى لَا تَعُودُ وَلَا تُعَوِّضُ .
احْتَدَى فِي تَعَبُّدِهِ حُطًى الْأَبِ نِعْمَةَ اللَّهِ الْحَرْدِينِيِّ وَالْقَدِّيسِ شَرْبِلِ
الَّذِينَ كَانَا يَقْضِيَانِ مُعْظَمَ اللَّيَالِي سَاجِدَيْنِ مُصَلِّيَيْنِ أَمَامَ الْمُصْلُوبِ
الْمُخْلِصِ مُتَأَمِّلِينَ فِي سِرِّ الْفِدَاءِ الْعَجِيبِ .

وكان غالبًا ما يترك عمله ويقصد الكنيسة ويسمّر عينيه في بيت
القربان المقدّس فتسبحُ روحه عندئذٍ وتندمجُ في المسيح وينخطفُ
عن هذا العالم المليء بالشكوك والمعاصي ليكون برفقة الاب السّماوي
وابنه. يقضي ساعاتٍ طويلةً مصلّيًا مستغفرًا نادمًا. وكم كانت النشوة
تشده إليها عندما يسمع الترانيم الدنيّة وخاصّة «عساكر السّماء محيطه
معنا بمائدة المذبح، تزيّج أسرار الحمل الذي قدّامنا يُذبح، فلنتقدّم
ونتناوله عن إثمنا يُصَفَح. هَلَلُويا».

عزف الأخ اسطفان عن العالم وأحترق خيراته وتعلّق بجبال الفقر
فلم يقتنِ لنفسه شيئًا من حُطام هذه الدنيا كما أنّه لم يشته أن يمتلك
يومًا ما هو ليسواه.

كان محبًّا للقريب محبّة مسيحيّة صادقة خالية من كلّ غرض أو
فكرة مسبّقة. فكان يعطِفُ على شركاء الدّير وعيالهم ويدلّل صغارهم
ويطعم جياعهم ويعزيّ محزونينهم ويشجّع المرضى منهم ويزرع في
قلوبهم الأمل والفرح ولا يبخل على أحد بما له. «كان في دير ميفوق
ثلاثة وسبعون راهبًا إذا شاهدوه عانقوه بحبّ لأنّه كان يُحبّهم وكلّ
مساء يعود من الحقل يدور على قلالهم يتفقّدهم بروح المحبّة ويقضي
لوازم الشيوخ منهم»^(١).

(١) الأب يوسف خشان، ابن الضبعة، ١٩٧٥، ص. ٤٢.

كان رحوماً بالآخرين عطوفاً عليهم سموحاً معهم. فقد ورد في شهادة الأخ جرجس نعمة ما يلي: «كان في الحرب الكونية^(١) يدور مفتشاً عن الجوع. دخل بيتاً فشهد ولداً طفلاً يرضع أمه وهي ميتة! فرق قلبه وحمل هذا الصغير بين يديه إلى حارة الحلقة وراح يعتني به وبغيره من الأحداث الجوع يرضعهم من أئداء البقرة، حتى أخرجهم من الحرب سالمين.

«وكان يوزع ثلاثة أرباع حصته من القوت على الفقراء والجوع ومتى دق وقت الصلاة في الحقل ينفرد لتلاوة فرضه»^(٢).

اشتهر بأمانته للرهبانية التي لم يفضل عليها أحداً. حين كان رئيس حقله في ميفوق (١٩١٥ - ١٩٢٠) حافظ على أملاك الدير محافظة الضنين على ماله. لم يفكر يوماً أن يساعد إخوانه ولو بقسم يسير من خيرات الأرض.

ومما يؤثر عنه أن أخاه سركيس بنى في لحفد غرفة وأتى إلى أخيه وطلب منه أن «يشد» منجورها. لبى الأخ اسطفان طلبه بعد أن استأذن رئيسه. وكان نجاراً بارعاً. وبعد أن أنهى من عمله التفت إلى أخيه وقال:

(١) ١٩١٤ - ١٩١٨.

(٢) الأب يوسف خشان - المرجع السابق.

— ها قد أَنْتَهَيْتُ مِنْ «شَدِّ» مَنْجُورِكَ، يَا أَخِي، وَقَدْ كَلَّفْتُ
الْأَخْشَابَ أَرْبَعَةَ بِشَالِكَ^(١) أَمَّا أُجْرَةُ يَدِي فَقَدْ أَجَازَهَا لَكَ قَدُسُ
الْأَبِ الْعَامِ.

تَعَجَّبَ مَنْ كَانَ حَاضِرًا فَتَدَخَّلَ أَحَدُهُمْ قَائِلًا لَهُ :
— يَا أَخِي اسْطِفَانْ، هَلِ الدَّيْرُ فَقِيرٌ لَتَأْخُذَ الْأَرْبَعَةَ بِشَالِكَ مِنْ
أَخِيكَ؟

— إِنَّ هَذَا الْمَالِ، الَّذِي تَطْلُبُ مِنِّي أَنْ أَدْعَهُ لِأَخِي، لَيْسَ لِي
وَلَا لِسِوَايَ، بَلْ هُوَ وَقْفٌ لِلَّهِ، وَلَا أُرِيدُ أَنْ يَدْخُلَ إِلَى بَيْتِ أَخِي.
الْتَفَتَ «بُو جَرِيْس» إِلَى مَنْ حَوْلَهُ وَقَالَ :

— مَعَ الْأَخِ اسْطِفَانْ مِلْءُ الْحَقِّ فَالْوَقْفُ «عَيْنُهُ ضَيِّقَةٌ» وَهُوَ لَا
يَرْحَمُ مَنْ يَعْتَدِي عَلَيْهِ. اُنْسَيْتُمْ أَنَّ فَارِسَ ... كَانَ يَقْطُفُ قَرْنَ خُرْنُوبٍ
مِنْ رِزْقِ الْوَقْفِ، فَوَقَعَ وَكَسَرَ فَخْذَهُ، وَأَنَّ طَانِيُوسَ بَنَى غُرْفَةً، وَقَدْ
أَعْتَدَى عَلَى رِزْقِ الْوَقْفِ. فَلَمْ يَطُلْ الْوَقْتُ حَتَّى أَعْتَلَّتْ صَحَّتُهُ فَمَاتَ
دُونَ أَنْ يَدْرِيَ أَحَدُ السَّبَبِ، ثُمَّ مَرَضَ وَلَدُهُ الْوَحِيدُ وَشَارَفَ عَلَى
الْمَوْتِ فَأَسْرَعَتْ زَوْجَتُهُ وَنَذَرَتْ نِصْفَ الْغُرْفَةِ لِلْوَقْفِ.

— أَعْطَانَا الْأَخِ اسْطِفَانْ، بَعْدَ تَسَامُحِهِ مَعَ أَخِيهِ، أُمْتُولَةً رَائِعَةً فِي
أَحْتِرَامِ مَالِ الْغَيْرِ وَمَمْتَلَكَاتِهِ فَلَنْقِدَ مِنْهَا.

(١) بِشَالِكَ ج. بِشَلِكْ : عَمَلَةٌ تَرْكِيَّةٌ.

وشهد الأب أغناطيوس التنّوري الذي كان معلّمًا للمبتدئين في دير كفيفان رئيسًا عامًّا لمدة ستّة عشر عامًا قال :

«عَرَفْتُ الأخ اسطفان مبتدئًا وراهبًا إذ كُنْتُ رئيسًا عامًّا وعَرَفْتُ فِيهِ الرُّوحَ الرّهْبانيّ الصّحيح. كان مثلاً حيًّا في الحِفاظ على نُدُوراته «الطّاعة والعفّة والفقر». كان لبقًا فطِنًا يدبّرُ الأمور بحكمة ويحافظ على الزّمان وكان مُطيعًا كل الإِطاعة لرؤسائه ومحبًّا لأمّه الرّهْبانية»^(١).

كان بسُلوْكِهِ المثاليّ ونصائِحِهِ الحكيمة يُحبّبُ الرّهْبانيّة إلى قُلُوب أنسبائه. فقد أَخْبَرَتِ الأختُ مارينا نعمة، راهبةٌ مار يوسف جربتُ ما يلي :

«عَرَفْتُ عمِّي راهبًا وطالما تَرَدَّدْتُ إِلَيْهِ فِي دير سيّدة المعونات - جبيل وكان كلّ مرّة أَجْتَمِعُ بِهِ يَحْرِضُنِي عَلَى حِفْظِ الآداب والأخلاق الطّاهرة يَقُولُ : انتبهي، يا ابْنَتِي، إِنَّ الفَتاةَ مِثْلَ الزُّجاجةِ، إِذَا عَطِبَتْ ذَهَبَتْ وَبَادَتْ. حَافِظِي عَلَى واجِبَاتِكَ الدِّينيّةِ وأَهْرُيْ مِنَ الأسبابِ المُضِرّةِ بِالآدابِ الَّتِي أَلْفَتْهَا بَنَاتُ هَذَا العَصْرِ. كُونِي لِرَفِيقَاتِكَ وَلَا تَتَّبِعِي الأَزياء.

«وما زال بي حتّى حَبَّبَ إِلَيَّ الرّهْبانيّةَ بِحِكمَتِهِ وَسَدَادِ رَأْيِهِ الصّائبِ. وَأَنَا لَمْ أَكُنْ أَحْلُمُ بِدُخُولِ الدَّيْرِ. وَقَدْ بَاشَرَ بِطَلَبِ المَأْذُونِيّةِ

(١) الأب يوسف خشان، المرجع السابق.

لأَدْخُلَ دِيرَ مارِ يَوْسُفَ حَيْثُ أَنَا. بَيِّدَ أَنَّ الْمَنِيَّةَ عَاجَلَتْهُ قَبْلَ إِتْمَامِ
عَمَلِهِ فَبِتْ أُنْدُبُ حَظِّي!

«وَذَاتَ لَيْلَةٍ رَأَيْتُ فِي الْحُلُمِ عَمِّي الْأَخَ اسْطِفَانَ وَقَالَ لِي:

— لَا تَخَافِي أَنَا لَمْ أَمُتْ بَلْ أَنَا حَيٌّ.

«قُلْتُ:

— وَدَعَوْتِي؟

«قَالَ لِي:

— لَا تَخَافِي، بَلْ أَتَكْلِي عَلَى اللَّهِ وَهُوَ يَدْبُرُكَ.

وَفِي صَبَاحِ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَصَلْتَنِي الْمَآذُونِيَّةُ بِوَاسِطَةِ أَحَدِ أَنْسِبَائِي

الرَّهْبَانِ»^(١).

وَأَخْبَرَ الْأَبَ بُولُسَ نِعْمَةَ مَا يَلِي: «إِنِّي مَدْيُونٌ لِعَمِّي الْأَخِ
اسْطِفَانَ الْبَارِّ لِأَنَّهُ عَزَّزَ اسْمَ عَائِلَتِنَا وَرَفَعَ لَوَاءَهَا عَالِيًّا وَلَا أَعْرِفُ كَيْفَ
أَعْبُرُ عَمَّا يَجُولُ فِي خَاطِرِي مِنَ الشُّكْرِ لَهُ تَعَالَى الَّذِي أَنْعَمَ عَلَيْنَا بِهَذِهِ
الْإِنْعَامَاتِ الْعَدِيدَةِ. عَمِّي رَمَزُ الطَّهَارَةِ وَالرَّصَانَةِ وَعُمُودُ مَجْدٍ وَكَرَامَةٍ.
قَدْ حَبَّبَ إِلَيَّ رُوحَ التَّقْوَى وَشَوَّقَنِي إِلَى الْكَهَنُوتِ وَأَعْطَانِي الْمَثَلَ
الصَّالِحَ. فَكُنْتُ أَرَى فِيهِ شَخْصَ السَّيِّدِ الْمَسِيحِ وَودَاعَتُهُ وَتَوَاضُّعُهُ.

(١) المرجع السابق.

رَاهِبٌ هَجَرَ الدُّنْيَا وَوَجَّهَتْهُ الْأَبَدِيَّةُ السَّعِيدَةُ كَافِرًا إِلَّا بِرَبِّهِ رَاغِبًا عَنْ
حُطَامِ الدُّنْيَا وَشَهَوَاتِهَا وَتُرْهَاتِهَا الزَّائِلَةِ مُجِدًّا فِي تَحْصِيلِ الْكَمَالِ
الرَّهْبَانِيِّ حَتَّى بَلَغَ الْقِمَّةَ^(١).

(١) المرجع السابق.

الوفاة

«فَيَعُودُ التُّرَابُ إِلَى الْأَرْضِ حَيْثُ كَانَ وَيَعُودُ
الرُّوحُ إِلَى اللَّهِ الَّذِي وَهَبَهُ».

الجامعة ١٢: ٧

عاش الأخ أسطفان حياةً بسيطةً وادعةً كزهرة البنفسج تبعث
الأجواء بعطر أنفاسها، وهي قابضة في مخبئها، لا يراها الإنسان إن لم
يفتّش عنها.

تعلق قلبه بالصلاة ومناجاة القربان المقدس والتأمل بآلام المخلص
وكمال الله تعالى وعظمته والعمل في حانوت النجارة الذي كان يتردد
إليه لملء ساعات الفراغ وصناعة ما كان يحتاج إليه الدير من أدوات
أو إصلاح ما خرب من «المنجور» أو تعطل من الأدوات الزراعية.
لم يزر لحفد طيلة حياته سوى مرّات معدودة ولم يكن يمكنه فيها
سوى أيام أو ساعات قليلة.

إِنَّهُ لَا يَنْسَى اللَّهُ دَقِيقَةً وَاحِدَةً... وَكَانَ يُرَدِّدُ فِي قَلْبِهِ قَبْلَ كُلِّ
عَمَلٍ يُبَاشِرُهُ «اللَّهُ يَرَانِي».

اللَّهُ يَرَانِي،

فَلَا بُعْدَ، وَلَا نُورَ، وَلَا ظَلَامَ يُحْجِبُنِي عَنْهُ،
فَعَيْنُهُ تَخْتَرِقُ سَجُوفَ الظُّلْمَةِ مَهْمَا تَكَاثَّفَتْ، وَتَهْبِطُ إِلَى أَعْمَاقِ
الْأَرْضِ.

فَلَا حَسَنَةً أَوْ مَبْرَةً يُتِمَّمُهَا إِنْسَانٌ،

وَلَا صَلَاةَ يَهْمُسُ بِهَا قَلْبُهُ،

وَلَا فِكْرَةَ خَفِيَّةٍ تَمُرُّ عَلَى شَاشَةِ مَخِيلَتِهِ

وَلَا ظِلَامَةً أَوْ فَرِيَّةً أَوْ إِشَارَةً

إِلَّا وَيَعْلَمُ بِهَا.

اللَّهُ يَرَانَا فِي كُلِّ حِينٍ،

فَأَعْمَلُنَا وَإِنْ خَفِيَّتْ عَلَى الْبَشَرِ فَاللَّهُ يُدْرِكُهَا،

وَيُحَاسِبُنَا عَنْهَا،

فَيُجْزِينَا خَيْرًا إِنْ كَانَتْ بَارَّةً،

وَيُعَاقِبُنَا عَذَابًا إِنْ كَانَتْ فَاسِدَةً،

فهي لا تمحي من سجلات الأبد.
 «طوبى للرجل الذي يتأمل في الحكمة ويتحدث بها عقله.
 «ويتفكر في طرقها بقلبه ويتبصر في أسرارها.
 «ينطلق في إثرها كالباحث ويرقب عند مدخلها
 «ويتطلع من كواتمها ويسمع عند أبوابها.
 «ويحل بقرب بيتها ويضرب وتدًا في حائطها وينصب خيمته
 بجانبها وينزل بمنزل الخيرات.
 «يجعل بينه في كنفها ويسكن تحت أغصانها.
 «يستتر بظلمتها من الحرّ وفي مجدها يجد راحة»^(١).
 أدرك الأخ اسطفان، أن الحياة قصيرة، وأن الإنسان لا يبقى له
 من هذه الفانية، سوى أعماله. كم وردة تلد وتتفتح على الوجود،
 تهب العين بروعة ثوبها، توضع راحتها زكية، وترهو بجملها الذي
 ليس كمثله جمال، فلا تفتأ أن تحني رأسها، وتجف في عروقها ماء
 الحياة، وتذبل وتنتثر أوراقها وتذوي! الزمن يلهو بنا بتحوّلاته
 المستمرة، فال حاضر يذوب ويؤول ويندثر ولا يبقى منه سوى الذكرى.

(١) سفر يشوع بن سيراخ ٢٠: ١٤ - ٢٧.

نَحْنُ أَطْفَالُ مَسَاكِينٍ بَيْنَ يَدَيْهِ نَتَأَوُّهُ عَلَى الْمَاضِي، وَنَجْهَلُ خَافِيَاتِ
الْمُسْتَقْبَلِ وَلَيْسَ لَنَا سِوَى الثَّانِيَةِ الَّتِي نَعِيشُ فِيهَا.

كَانَ الْأَخُ اسْطِفَانُ يَدْرِكُ كُلَّ هَذَا، وَيَعْرِفُ أَنَّ لِلزَّمَنِ قِيَمَتَهُ،
فِيْمَسِكَ بِالثَّوَانِي وَالذَّقَائِقِ، فَلَا يَدْعُهَا تَمَرًّا وَكَأَنَّهَا لَمْ تَكُنْ... يَنْكَبُ
عَلَى الْعَمَلِ دُونَ سَأَمٍ، وَيُلَوِّذُ بِالصَّمْتِ، وَيَتَأَمَّلُ وَيُصَلِّي.

الْجَسَدُ إِنَاءٌ مِنْ تُرَابٍ، يَحْوِي طَيْبَ النَّفْسِ، سَرِيعُ الْعَطْبِ
يَتَفَتَّتُ مَعَ كُلِّ دَقِيقَةٍ، وَيَنْدَثِرُ. وَالزَّمَنُ جَبَّارٌ قَاسٍ، لَا يَرْحَمُ، يَسُوقُهُ
قَسْرًا إِلَى حَيْثُ يَشَاءُ.

هُوَ يَعْرِفُ أَنَّهُ يَجِبُ الْهَرَبُ مِنَ الْخَطِيئَةِ عَدُوِّ الْإِنْسَانِ، إِذْ إِنَّ هَذَا
«الْعَدُوَّ يُظْهِرُ حَلَاوَةً مِنْ شَفَتَيْهِ وَفِي قَلْبِهِ يَأْتُمِرُ أَنْ يَسْقُطَكَ فِي الْحَفْرَةِ.
الْعَدُوُّ تَدْمَعُ عَيْنَاهُ وَإِنْ صَادَفَ فُرْصَةً يَشْبَعُ مِنَ الدَّمِ. إِنَّ صَادَفَكَ شَرٌّ
وَجَدْتَهُ هُنَاكَ قَدْ سَبَقَكَ. وَفِيمَا يُؤْهِمُكَ أَنَّهُ مَعِينٌ لَكَ يَعْقِلُ رَجْلَكَ.
يَهْزُ رَأْسَهُ وَيَصْفَقُ بِيَدَيْهِ وَيَهْمِسُ بِأَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ وَيَغَيِّرُ وَجْهَهُ»^(١).

طَرِيقُ الشَّرِّ إِلَى أَنْحِدَارٍ، وَهِيَ سَهْلَةٌ الْمَسْلَكِ. طَرِيقُ الْخَيْرِ عَقَبَةٌ
كَثُودٌ وَهِيَ صَعْبَةٌ الْمَسْلَكِ، وَاتَّبَاعُهَا بِطُولَةٌ.
يُطَلَّبُ مِنْ كُلِّ إِنْسَانٍ أَنْ يَكُونَ بَطَلًا. فَلَا أَبْطَالُ لَيْسُوا مِنْ

(١) سفر يشوع بن سيراخ ١٥: ١٢ - ١٩.

يَكْسِبُونَ الْمَعَارِكِ فِي الْحُرُوبِ وَحَدَّاهُمْ بَلْ هُمْ أَيْضاً أَوْلَئِكَ الْجَهْلُولُونَ
الَّذِينَ يَسْمُونَ عَلَى ذَوَاتِهِمْ وَيَنَاضِلُونَ بِجُرْأَةٍ وَإِقْدَامٍ لِلانْتِصَارِ عَلَى
الشَّرِّ.

يا رَبِّي،
أَنْتَ الْحَيَاةَ وَالسَّعَادَةَ،
أَنْتَ النُّورَ الْفَارِحَ،
كُلُّ شَيْءٍ بَعِيدٌ عَنْكَ تَفَاهَةٌ
وَكُلُّ شَيْءٍ قَرِيبٌ مِنْكَ بَهْجَةٌ وَمَتْعَةٌ
وَأَنَا أَنْهَدُ إِلَيْكَ وَأَرْغَبُ أَنْ أَذُوبَ فِيكَ
أَنْتَ كَنْزِي الْمَنْشُودُ،
وَوَحْدَكَ أَعْبُدُ.

* * *

كَانَ الْأَخُ اسْطِفَانُ يُرَدِّدُ فِي قَلْبِهِ كُلَّ هَذَا. إِنَّهُ يَطْمَحُ أَنْ يَبْدُدَ كُلَّ
شَرٍّ فِي الْعَالَمِ، وَيُخَلِّصَ الْخَطَاةَ، وَيَرَى نَفْسَهُ عَاجِزاً... فَيَتَأَلَّمُ.
لَجَأَ إِلَى الصَّلَاةِ، فَهَلْ أَفْضَلُ وَسِيلَةٍ لِسَلَامِ الْقَلْبِ وَأَسْتَقَاءِ الْقُوَّةِ
الَّتِي تَنْتَصِرُ عَلَى الشَّرِّ؟

* * *

تَرَأْسُ دِيرِ كَفِيْفَان، سَنَةِ ١٩٣٦، الْأَبُ أَنْطُونِيُوسُ اللَّحْفَدِيِّ.

وكانت العادة تقضي في ذلك الزمن أن يصطحب كل رئيس أبناء بلدته معه فكان أن انتقل الأخ اسطفان إلى دير كفيان وتولى «رئاسة الحقة» أي مسؤولية أرزاق الدير يستثمرها ويستنبثها ويدبر غلالها.

وصادف أن ثار شركاء الدير في ميفوق وأرادوا وضع أيديهم على قسم كبير من الأملاك والاستيلاء عليها. توترت الأمور بين الفريقين وتشبث كل فريق من ناحيته بموقفه، لا يحيد عنه قيد أنملة، خاصة وأن الأملاك المختلف عليها ليست ملكاً شخصياً للرهبان يستطيعون التصرف به كما يشاؤون.

ولما كان الأخ اسطفان قد عاش ردحاً من الزمن في ميفوق، ويعرف حدود الأملاك معرفة دقيقة، مشهوداً له بالورع والصدق والعدل ومحبة الآخرين، بالإضافة إلى أنه كان يرافق لجنة المساحة ويضع صلباناً على الحدود، فقد استدعي إلى ميفوق كشاهد للفصل في القضية وإعطاء كل ذي حق حقه. لبى الدعوة في أواخر آب ١٩٣٨، وصادف أن كان ذلك اليوم يوماً قائظاً شديد الحرارة.

بعد وصوله بدأت التحقيقات وقصد الأرزاق المختلف بشأنها برفقة اللجنة المولجة بالأمر وجُمهور الشركاء. وكان في كل قطعة أرض يُراد معرفة مالکها الحقيقي، يُزيل التراب عن الصلبان المطمورة ويظهر الحدود بوضوح دون عناء أو تفتيش.

أنهى المهمة التي أوكلت إليه بأمانة وعاد إلى كفيّان. اتجه لدى
وضوئه إلى الكنيسة وصلى فرضه وبدأ تأملاً عن «الموت».

«أذكر أنّ الموت لا يبطئ. ألم يبلغك عهد الجحيم. قبل أن
تموت أحسن إلى صديقك وعلى قدر طاقتك ابسط يدك وأعطه. لا
تخسر يوماً صالحاً ولا يفتك حظ خير شهيد.

«ألسنّ مخلّفاً أتعبك لآخر وما جهدت فيه للاقتسام بالقرعة.
أعط وخذ وزك نفسك.

«قبل وفاتك اصنع البرّ فإنه لا سبيل إلى التماس الطعام في
الجحيم.
كل جسد يبلى مثل الثوب لأنّ العهد من البدء إنّ يموت
موتاً»^(١).

وما إن انتهى وأراد مقابلة الرئيس لإطلاعه على ما جرى حتّى
شعر بأنزعاج شديد وضداع أليم وانهار في جسده وخور في قواه،
فأمّره رئيس الدّير بلزوم فراشه للراحة.
و شاء الله في حكمته الفائقة التي لا يدركها عقل بشريّ أن يُناديه
إليه.

(١) سفر يشوع بن سيراخ ١٤: ١٢ - ١٧.

عَرَفَ الْأَخَ اسطِفَانُ أَنَّ سَاعَتَهُ قَدْ دَنَتْ فَفَرِحَ بِمُلَاقَاةِ الرَّبِّ. نَدِمَ
نَدَامَةً حَقِيقِيَّةً عَلَى كُلِّ مَا فَعَلَهُ وَأَعْتَرَفَ وَتَنَاوَلَ الْقُرْبَانَ الْمُقَدَّسَ زَادًا
إِلَى الْآخِرَةِ. وَرَقَدَ بِالرَّبِّ بِتَارِيخِ ٣٠ آبَ ١٩٣٨.

وما إن أنتشر خبر وفاته حتَّى عمَّ الأسى والحُزنُ عليه وبَكَاه
عارِفوه بِدُمُوعٍ سَخِيَّةٍ نَظْرًا لِفَضَائِلِهِ الْحَمِيدَةِ وَقِدَاسَتِهِ. وَقَدْ تَأَثَّرَ لِفُرَاقِهِ
إِخْوَانُهُ الرُّهْبَانُ الَّذِينَ عَرَفُوهُ عَنِ كُتُبٍ.

وقد سجَّلَ الأبُّ أنطونيوس نِعْمَةً وَفَاتَهُ فِي سَجَلٍ دِيرِ كَفِيفَانَ
بِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ:

«غَادَرَ هَذِهِ الْفَانِيَّةَ نَهَارَ الثَّلَاثَاءِ السَّاعَةِ السَّابِعَةِ فِي الثَّلَاثِينَ مِنْ
أَبِ الْأَخِ اسطِفَانِ نِعْمَةً لِلْحَفْدِيِّ وَكَانَ أَخًا عَامِلًا نَشِيطًا غَيْرًا عَلَى
مُصْلَحَةِ الدَّيْرِ قَوِيَّ الْبُنْيَةِ صَحِيحَ الْجِسْمِ سَالِمًا بَعِيدًا عَنِ الْخُصُومَاتِ
قَنُوعًا فَطِنًا بِالْأَعْمَالِ الْيَدَوِيَّةِ مُحَافِظًا عَلَى وَاجِبَاتِهِ وَنُدُورَاتِهِ قَائِمًا بِمَا عُهُدٌ
إِلَيْهِ حَقٌّ قِيَامٌ. وَقَبْلَ وَفَاتِهِ بِبُضْعَةِ أَيَّامٍ ذَهَبَ إِلَى دَيْرِ سَيِّدَةِ مَيْفُوقٍ
بِخُصُوصِ تَحْدِيدِ الْأَرْضِ لِأَنَّ الرُّهْبَنَةَ كَانَتْ أَشْتَرَتْ مِنْ بَعْضِ شُرَكَاءِ
الدَّيْرِ أَمْلَاكًا تَخْصُصُهُمْ أَيَّامَ الْحَرْبِ وَكَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنْذَاكَ فِي دَيْرِ
مَيْفُوقٍ وَفِي الْحَرِيفِ الْمَاضِي ثَارَ الشُّرَكَاءُ الْمَذْكُورُونَ عَلَى الرُّهْبَانِيَّةِ
وَادَّعَوْا مِلْكِيَّةَ كُلِّ الْأَرْضِ فَاضْطَرَّتْ الرُّهْبَانِيَّةُ إِلَى إِثْبَاتِ مِلْكِيَّتِهَا
وَتُعْزِيزِهَا فَاسْتَدْعَتْ لَجَنَةَ الْمَسَاحَةِ لِمَسْحِ أَرْضِ الدَّيْرِ وَلَأَنَّ الْبَائِعِينَ



قبر الأخ إسطفان نعمة

كانوا قد أَخَفَوْا التُّخُومَ فُدْعِي رَحْمَةُ اللَّهِ إِلَى هُنَاكَ لِيُذَلِّهِمْ عَلَى
التُّخُومِ وَكَانَ لَا يَزَالُ يَعْرِفُهَا تَمَامًا فَرَفَعَ التُّرَابَ عَنْهَا فَبَانَتْ كَمَا كَانَتْ
وَوُقِّعَ الْإِتِّفَاقُ عَلَيْهَا حِينَ الْبَيْعِ .

فَأَثَّرَ فِيهِ الْحَرْفُ فَأَصَابَتْهُ وَعْكَةٌ بَسِيطَةٌ تَلَاهَا دَوْرٌ حَمَى ثُمَّ سَكَنَتْ
دِمَاعِيَّةٌ كَانَتْ نِهَايَةَ حَيَاتِهِ رَحِمَهُ اللَّهُ ٣٠ آبَ ١٩٣٨ .

وَحَمَلَ الرِّهْبَانُ جَسْمَهُ إِلَى الْكَنِيسَةِ حَيْثُ أَقَامُوا الصَّلَاةَ عَنْ نَفْسِهِ
حَسَبَ الطَّقُوسِ الْبَيْعِيَّةِ الرِّهْبَانِيَّةِ وَأُودِعَ مَقْبَرَةَ الدَّيْرِ .

عَرَفَ الْقَدَاسَة

«ارتفعت كالأرز في لبنان وكالسرو في جبال
حرمون».

يشوع بن سيراخ ١٣: ٢٤

توفي أحد رهبان دير كفيفان خلال سنة ١٩٥٠ المقدسة التي
فيها ظهر القديس شربل واشتهر بعجائبه المذهلة. فجاء بعض الإخوة
يرافقهم أحد الأجراء لرفع بقايا الأخ اسطفان للتمكن من دفن
الراهب المتوفى. وما إن فتحوا الضريح حتى وجدوا جثمانه لا يزال
على حاله عند الوفاة. تقدم الأجير ليضربه بمغول يحمل في يده
للتمكن من إخراجه فيبست يده للحال وتولاه دُعُر شديد. وقد صاح
به أحد الرهبان:

— إِيَّاكَ أَنْ تَفْعَلَ. ارْمِ الْمَغُولَ مِنْ يَدِكَ.

فَفَعَلَ وَأَبْتَعَدَ هَلْعًا.

وَلَمَّا أَتَى رَئِيسُ الدَّيرِ، الأبَّ أَغْنَاطِيوسَ خَشَّانَ، قَالَ لِلرُّهْبَانِ
وَالِإِخْوَةِ الْمُجْتَمِعِينَ حَوْلَ الضَّرِيحِ.

— أَرْجُوا أَنْ تَعِيدُوا إِغْلَاقَ الْمَدْفَنِ وَأَنْ لَا تَذِيعُوا الْخَبَرَ بَيْنَ
النَّاسِ.

تَقَدَّمَ أَحَدُ الْإِخْوَةِ وَقَالَ :

— اسْمَحْ لِي، يَا أَبَتِي، أَنْ أَعَارِضَ رَأْيَكَ هَذَا، فَالْأَخُ اسْطِفَانُ
قَدِّيسٌ، وَقَدْ اسْتَحَقَّ قِدَاسَتَهُ بِحَيَاةٍ كُلِّهَا صَلَاةً وَتَقَشُّفَ وَعَمَلٍ
وَمَبْرَّاتٍ.

— يَا ابْنِي، عَدَمُ بَلَاءٍ وَفَسَادِ جُثْمَانِ الْمَيِّتِ لَيْسَ دَلِيلًا قَاطِعًا عَلَى
قِدَاسَتِهِ، فَقَدْ لَا يَبْلَى لِعَوَامِلٍ وَأَسْبَابٍ مُخْتَلِفَةٍ. مِنْ الْأَفْضَلِ أَنْ نَتَرَيَّثَ
كَيْ لَا نَتَعَرَّضَ إِلَى سَخَرِيَّةِ غَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ. فَالْوَقْتُ أَمَامَنَا. عِنْدَمَا نَتَحَقَّقُ
مِنْ سَلَامَةِ الْجُثْمَانِ بِقُوَّةٍ مِنَ اللَّهِ نَعْمَدُ إِلَى إِذَاعَةِ الْخَبَرِ.

— إِذَا أَعَدْنَا دَفْنَ الْجُثْمَانِ وَإِغْلَاقَ الْقَبْرِ، فَكَيْفَ نَسْتَطِيعُ أَنْ
نَتَبَّثَ مِنْ سَلَامَتِهِ؟ لِمَاذَا لَا نُخْرِجُهُ وَنَضَعُهُ فِي الدَّيْرِ. لِيرَاهُ الْجَمِيعُ؟
— أَنَا غَيْرُ مُقْتَنِعٍ، يَا أَخِي، حَتَّى الْآنَ بِوُجُوبِ لَمْسِ الْجُثْمَانِ أَوْ
عَرْضِهِ. فَإِذَا كَانَ الْأَخُ اسْطِفَانُ قَدِّيسًا، فَعِنْدَ اللَّهِ طَرَائِقُ كَثِيرَةٌ،

لإظهارِ قداستِهِ. فلكلِّ شأنٍ أَوَانُهُ. إِنَّ قَدْرَةَ اللَّهِ فَائِقَةٌ وَلَنْ يَسْتَطِيعَ أَحَدٌ مُقَاوَمَتَهَا أَوْ نَقْضَهَا. يَجِبُ أَنْ نَتَصَرَّفَ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ بِحِكْمَةٍ وَاعِيَةٍ. التَّسْرُّعُ يَقودُنَا إِلَى الْخُطْلِ وَالْخُطْلُ إِلَى الْفِرَاقِ.

— أَنَا لَا أَقُولُ عَكْسَ هَذَا، وَلَكِنْ مَا دُمْنَا قَدْ اكْتَشَفْنَا أَنَّ الْجُبْنَانَ مَا زَالَ عَلَى حَالِهِ عِنْدَ الْوَفَاةِ فَلَمَّاذَا لَا نَرْضَخُ لِلْوَقْعِ وَنَسْتَدْعِي أَهْلَ الْعِلْمِ لِيَقُولُوا كَلِمَتَهُمْ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ؟ الْأَطِبَّاءُ وَحَدُّهُمْ يَعْرِفُونَ سَبَبَ بَقَاةِ الْجُبْنَانِ سَالِمًا مَعَ عَدَمِ انْبِعَاثِ رَائِحَةِ الْفَسَادِ وَالْمَوْتِ مِنْهُ. فَكَّرَ الْأَبُ أَغْنَاطِيُوسَ وَلَكِنَّهُ أَصْرَّ عَلَى إِعَادَةِ دَفْنِ الْجُبْنَانِ وَإِغْلَاقِ الْقَبْرِ وَعَدَمِ إِذَاعَةِ شَيْءٍ مِمَّا حَدَثَ.

وَبَقِيَ ذَلِكَ الرَّاهِبُ عَلَى إِيمَانِهِ بِأَنَّ الْأَخَ اسْطِفَانَ قَدَّيسَ، فَرَّاحَ يَهْتَمُّ سِرًّا بِالْجُبْنَانِ. فَكَانَ يَمَسِّحُهُ كُلَّ يَوْمٍ مِنَ الْعُقُوفَةِ. لَمْ يَكْتَفِ بِهَذَا الْأَمْرِ، بَلْ عَمَدَ إِلَى جَمْعِ بَعْضِ الْمَالِ مِنْ أَصْدَقَائِهِ وَاشْتَرَى بِهَا أَلْوَاخًا مِنَ الْخَشَبِ، صَنَعَ مِنْهَا صَنْدُوقًا جَدِيدًا.

أَرَادَ الرَّاهِبُ الْمَذْكُورُ، ذَاتَ يَوْمٍ، أَنْ يَنْقُلَ الْجُبْنَانَ الطَّاهِرَ لِيَضَعَهُ فِي الصَّنَدُوقِ الْجَدِيدِ فَأَخْرَجَهُ وَحَمَلَهُ عَلَى كَتِفِهِ وَإِذَا بِسَيَّارَةٍ تُطَلُّ عَلَى الدَّيْرِ. أُسْرِعَ إِلَى الْمَدْفِنِ وَأَنْزَلَ جِمْلَهُ عَنْ كَتِفِهِ وَأَوْصَدَ بَابَهُ وَدَخَلَ الدَّيْرَ.

اقْتَرَبَ الزَّائِرُونَ مِنَ الدَّيْرِ وَنَزَلُوا مِنَ السَّيَّارَةِ وَقَرَعُوا الْبَابَ وَهُمْ يَصِيحُونَ.

– يا رَاهِب، افْتَحْ لَنَا، لِنُشَاهِدَ الْإِخْ اسْطِفَان.
وما زالوا به حَتَّى اسْتَجَابَ لَطَلِبِهِمْ وَأَدْخَلَهُمْ إِلَى الدَّيْرِ. فإِذَا بِهِ
أَمَامَ السَّيِّدَةِ مَارِي نِعْمَهُ وولَدَهَا جُوفِي وَسَائِقِي.
– ماذا تريدِين، يا أُخْتِي؟ كيف عَرَفْتِ أَنَّ الْجِثْمَانَ الَّذِي كُنْتُ
أَحْمِلُ هُوَ لِلْإِخْ اسْطِفَان؟
هَزَّتِ الْمَرْأَةُ رَأْسَهَا كَأَنَّهَا تَرِيدُ أَنْ تَقُولَ: لَكَ الْحَقُّ أَنْ تَسْأَلَ.
وَأَجَابَتْ:

– لَيْلَةَ الْبَارِحَةِ ظَهَرَ لِي رَاهِبٌ فِي الْحُلَمِ وَقَالَ لِي: «اتَعْرِفِينِي»؟
قُلْتُ: لَا
قال:

– أَنَا الْإِخْ اسْطِفَانُ وَمَوْجُودٌ حَالِيًّا فِي دَيْرِ كَفِيْفَان – الْبَتْرُون.
– نَعَمْ، ماذا تريدُ مِنِّي؟
– إِنَّ وَلَدَكَ جُونُ مَصَابٌ بِرَمَدٍ فِي عَيْنَيْهِ.
– هَذَا صَحِيحٌ كَيْفَ عَرَفْتَ ذَلِكَ؟
– اذْهَبِي صَبَاحَ غَدٍ إِلَى الدَّيْرِ الَّذِي ذَكَرْتَهُ لَكَ، وَمَتَى وَصَلْتِ
قَبَالَةَ الدَّيْرِ تَشَاهِدِين رَاهِبًا حَامِلًا رَاهِبًا آخَرَ مِيتًا.

- نعم.

- اتبعه مع ولدك.

واختفى.

ولمّا استَفَقْتُ من نومي اخبرْتُ زوجي وجيراني بأمرِ الحُلم
فأشارُوا عليّ بالاتّجاه فوراً إلى هذا الدَّير لآتِحقّق من أنّ ما رأيتُ لم
يُكُن حُلماً بل ظُهوراً عجائبيّاً. فاستأجرت سيارَةَ واصطَحَبْتُ وَلَدِي
المَريضَ وَها أَنَا أَنتَظِرُ حَتّى أُحْظَى بِمُشَاهَدَةِ الأَخِ اسطِفانَ وَطَلَبِ
شَفَاعَتِهِ.

والتَفَتَتِ المَرأةُ إلى وَلَدِها وَقالتُ:

- أَطَلَبُ منَ عَمّو حَتّى يَشْفِيكَ.

فَقالَ جَوْنِي بِصوتِ بَريءٍ مؤمنٍ:

- عَمّو، اسفِني دَخيلَكَ.

عِنْدَئِذٍ رَقَّ قَلْبُ الرّاهِبِ وَقادَ الأُمُّ وَلَدَها إلى ضَريحِ الأَخِ
اسطِفانَ وَأَخَذَ يَدَهُ وَمَسَحَ بِها عَينَيِ الوَلَدِ فَشَفِيتا لِلحالِ وَلَمْ يُعَدَّ فِيها
أَيُّ أَثَرٍ لِلاحمرارِ.

شَكَرَتِ السَيِّدةُ ماري نِعْمَةَ اللهِ على النِّعْمَةِ الَّتِي مَنَحَها إِياها
بِشَفَاعَةِ الأَخِ اسطِفانَ وَانصَرَفَتِ فَرِحَةً بِشَفَاءِ وَلَدِها.

بعد أَيَّامٍ قَدِيمٍ مِنْ كُنْدَا طَبِيبُ لُبْنَانِيٍّ مِنْ كَفَرْتِيهِ لَتَفْقُدُ بِلَدَّتِهِ وَأَهْلَهُ. وَكَانَ بِصَدَدِ تَأْلِيفِ كِتَابٍ عَنْ قَدِيسِي لُبْنَانَ. وَفِي أَثْنَاءِ تَحْرِيَاتِهِ عِلْمٌ بِقِصَّةِ «الْأَخِ اسْطِطْفَانَ» فَأَبْدَى رَغْبَتَهُ أَنْ يَزُورَ دَيْرَ كُفَيْفَانَ لِدِرَاسَةِ هَذِهِ الْحَالَةِ الْغَرِيبَةِ عَنْ كَثَبٍ. وَفِي أَحَدِ أَيَّامِ ١٩٥٠ أَقْبَلَ إِلَى الدَّيْرِ بِرِفْقَةِ الْخُورِيِّ يَوْسُفِ رِزْقٍ وَمِنْعِمٍ مَنِعِمٍ. وَطَلَبَ إِذْنًا مِنَ الرَّئِيسِ لِيَقُومَ بِمَعَايِنَةِ وَفَحْصِ الْجُثْثَانِ فَتَالَهُ وَقَامَ بِعَمَلِهِ بِكُلِّ دَقَّةٍ وَإِخْلَاصٍ. قَالَ مَنِعِمٌ:

— كُنْتُ مَعَ الطَّبِيبِ الْمَذْكُورِ عِنْدَمَا كُشِفَ عَلَى الْجُثْثَانِ. وَقَدْ أَخَذَهُ الْعَجَبُ مِمَّا رَأَى. إِذْ كَانَ جُثْثَانِ الْإِخِ اسْطِطْفَانَ لَيْتًا. أَقَامَهُ وَأَقْعَدَهُ كَأَنَّهُ حَيٌّ. وَكَانَ كَامِلًا بِشَعْرِ رَأْسِهِ وَلِحْيَتِهِ. وَلَمَّا انْتَهَى مِنْ عَمَلِهِ سَأَلَهُ الْأَبُ أَنْطُونِيُوسَ خَشَّانَ، رَئِيسُ الدَّيْرِ:

— مَا رَأَيْتُكَ، يَا طَبِيبَ.
— إِنِّي أَشْهَرُ بِأَنِّي لَمْ أَرِ جَسْمًا كَهَذَا الْجِسْمِ مَرَّتَ عَلَى وَفَاةٍ صَاحِبِهِ اثْنَتَا عَشْرَةَ سَنَةً وَلَا يَزَالُ يَحْتَفِظُ بِتَكَوِينِهِ وَطَرَاوَةِ أَطْرَافِهِ.
أَنَا جِئْتُ إِلَى الشَّرْقِ لَأَقِفَ عَنْ كَثَبٍ عَلَى سِيرِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الشَّرِيقِينَ وَأَضَعُ كِتَابًا مَوْضُوعِيًّا بِهَذَا الْخُصُوصِ وَسَأَعْرِجُ بِطَرِيقِ عَوْدَتِي إِلَى كُنْدَا عَلَى الْفَاتِيكَانِ وَأَقَابِلَ قَدَاسَةِ الْخَبَرِ الْأَعْظَمِ وَاطْلَعَهُ تَفْصِيلًا عَلَى الْوَاقِعِ الَّذِي لَمَسْتُ وَشَاهَدْتُ.

وبعد أن أخذ رسمًا للجثمان انصرف ممجدًا الله في قدسيه.

وفي ذلك الوقت كان جثمان الأخ اسطفان محافظاً على لونه الطبيعي غير أن أحد الآباء أخرجه من صندوقه وغسله بالماء الساخن فتقلصت شفتاه ودهنه بالاسبيرتو ووضعه مدّة طويلة في الشمس فتبدّل لونه قليلاً.

ولزيادة في التأكيد، كلّف رئيس دير كفيّان في ٢٩ أيلول عام ١٩٦٢، الدكتور روز الخوري إيلان (عبدلي) بمُعانة الجثمان وإعطاء التقرير المناسب، بعد مُضيّ أربعة وعشرين عامًا على الوفاة. وكان هذا الطبيب معروفاً بخبرته الطويلة وجُرأته على قول الحقّ وطول باعه في الطبّ ومشهوداً له بالأمانة والصدق والنزاهة. فعاین الجثمان معانةً دقيقة، أعطى بنتیجتها التّقرير التّالي:

«بتاريخه كلّفت من قبل حضرة رئيس دير كفيّان الأب أغناطيوس خشان المُحترم للكشف على جثمان الأخ أسطفان نعمة الله اللّحدی المتوفى بتاريخ ٣٠ آب ١٩٣٨، وقد كشفت على جثمان الأخ المذكور فوجدت كافة أعضائه الجسديّة لم تزل سليمة من أيّ فسادٍ أو تشويهٍ ظاهر ولا نقصانٍ إلّا قطعة صغيرة من جبهته بالجهة الیمنی يبدو أن يداً انتزعتهما بقصد حفظها للتبرک منها. أمّا لونُ الجسِم فهو مائلٌ للاسمرار وتبدو الأطراف لینة شبه طبيعیّة وكذلك جلد

البَطْن وعضلاته. أمّا الشَّعر فلم يزل محفوظاً من السَّقُوط على الرَّأس
والذَّقن معاً. هذا ما شاهدته. فإني أُعْطِي به هذه الشهادة، بحسَبِ
ضَمِيرِي وَوَجْدَانِي».

الدكتور روز الخوري إليان

٢٩ أيلول ١٩٦٢

الآيات

«فدنا إِلَيْهِ تلاميذه وقالوا لَهُ لماذا تكلّمُهُم بِأَمْثال .
فَأَجَاب وقال لَهُم أَنْتُمْ قَدْ أُعْطِيتُمْ مَعْرِفَةَ أَسْرَارِ
مُلْكوتِ السَّمَاوَاتِ وَأَمَّا أُولَئِكَ فَلَمْ يُعْطُوا . لِأَنَّ
مَنْ لَهُ يُعْطَى وَيُزَادُ وَمَنْ لَيْسَ لَهُ يُؤْخَذُ مِنْهُ . فلهذا
أُكَلِّمُهُم بِأَمْثال لِأَنَّهُمْ يُبْصِرُونَ وَلَا يُبْصِرُونَ
وَيَسْمَعُونَ وَلَا يَسْمَعُونَ وَلَا يَفْهَمُونَ . ففَهِمُ تَتَمُّ
نَبوءة أَشْعِيَا المَقُولُ فِيهَا تَسْمَعُونَ سَمَاعًا وَلَا
تَفْهَمُونَ وَتَنْظُرُونَ نَظْرًا وَلَا تُبْصِرُونَ . لِأَنَّهُ قَدْ غُلِظَ
قَلْبُ هَذَا الشَّعْبِ وَثَقَلَتْ آذَانُهُمْ عَنِ السَّمْعِ
وَأَغْمَضُوا عُيُونَهُمْ لئَلَّا يُبْصِرُوا بِعُيُونِهِمْ وَلَا
يَسْمَعُوا بِآذَانِهِمْ وَلَا يَفْهَمُوا بِقُلُوبِهِمْ وَيَرْجِعُوا
إِلَيَّ فَأَشْفِيَهُمْ» .

متى ١٣: ١٠ - ١٥

تنتشر أديرة الرهبانية اللبنانية في جميع أنحاء هذا البلد الخير،
مراكز علم وإشعاع وواحات رفد ونبل ومشاعل نور وقداسة، وقد
أثبتت للدين أولياء وقديسين وللبنان مواطنين مخلصين ولا تزال منذ
نشوئها مغارس أمجاد ومفاخر.

في دير كفيفان تتلمذ القديس شربل مخلوف وفيه شعت قداسة
الأب الحرديني ومنه أنتشرت رائحة قداسة الأخ أسطفان نعمة الذي
عرف باسم «قديس كفيفان» وقد يكون ذلك لأنه يرقد فيه مُحاطاً
بإكرام الرهبان والزائرين.

ذاعت شهرة هذا الأخ في جميع أنحاء لبنان فأصبح ضريحه مزاراً
عظيماً يؤمّه المؤمنون من كل حذب وصوب... وتعددت العجائب
التي تمت بشفاعة هذا البار ممّا دفع الرهبانية إلى رفع عريضة إلى
قدس الأباتي بطرس القزي، مؤرّخة في ٣٠ كانون الأول ١٩٦٩ ترجو
فيها رفع دعواه إلى المراجع العليا المختصة ليُصار إلى إدراجها بين
دعاوى التطويب. ثمّ جدّدت رفعها في عهد قدس الأباتي شربل
قسيس.

وقد استندت الرهبانية في التماسها إلى عجائب وخوارق عديدة
نكتفي بسرد بعض منها.

١ - الصبي المطوق^(١)

في العقد الثامن من القرن الماضي كان معمل الحرير بالفريكة في أوج الإقبال، عامراً بالمائة الكاملة من العمّال والعاملات، تُدير المائة من دواليبه المتلاّاة بالخيوط الذهبية المستخلصة من الشرائق في أحواض المياه الساخنة. وكانت قوافل البغال المحملة شرائق تحبّ إلى المعمل من كلّ حدب وصوب، وتحمل منه كلّ أسبوع بالات الحرير إلى بيروت، لتُشحن إلى مدينة ليون بفرنسا. وكان وكيل أصحاب المعمل ببيروت يُرسل المال ثمن الحرير مجيديّات عثمانية في أكياس من الجُنْفِيس، تحملها تلك البغال عائدة إلى الفريكة: «تعالوا يا أولاد عدّوا المجيديّات. عدّوها وصفوها في الصناديق».

وفي تلك الأيام الفضيّة السعيدة - أيام القوافل المحملة حريراً، العائدة من بيروت بأحمالٍ من المجيديّات كان لأحد أصحاب المعمل ولدٌ صغير، في الرّبيع الرّابع من عمره، رأى بغلاً ذات يوم مربوطاً بشجرة التوت أمام الباب، فحدّثته نفسه بالفروسيّة. دنا من البغل وفكّ رسنه، ثمّ صعد إلى الحافة، ومنها إلى ظهره. مشى البغل متباطئاً، متحقّقاً أمره، فنتل الصغير الرّسن، ففهم ذو الأربعة

(١) أمين الرّيجاني، قلب لبنان، الطبعة الأولى.

المذكور معنى ذلك، وراح يحُبّ، ثمَّ يعدو، فتقلقل الفارس الصغير، وهوى إلى الأرض. في تلك الفينة، وهوى بين الأرض وجلال البغل، رآه أحد الجيران، فصاح مستنجداً بمار أنطونيوس ومار شليطا، وهرع إلى الصغير فلمَّه، وحمله دامي الرأس إلى أمه. ما كان الجرح مُهمّاً، فما عتَم أن التأم. ولكنَّ الولد أُصيب بَعْد بضعة أَيَّام بمرض في أذنه، شديد الألم، كثير الصَّديد، فحمل إلى طبيب برمانا المشهور في تلك الأيَّام، الدكتور بشاره منسى، فوصفَ له دواءً وحقنة.

كانت الحقنة تزعج الصغير، وما أُسرعت في الشفاء. فنشلها ذات يوم من يد الخادمة، وهي تحقن أذنه، وضربها بها على رأسها فانكسرت.

بعد يومين من هذا الحادث جاء الفريقكة رجلٌ من غرزوز، كان يشتري الشرائق للمعمل. جاء للمُحاسبة، فنزل ضيفاً على والد الصغير المُصاب بأذنه. فقصّت الأمُّ عليه القصة المُكربة، فطمأنها قائلاً: الدواء عندنا، إن شاء الله.

وما الدواء؟ أخبر ذلك الغرزوزي التقى الأمَّ التقية أن في ناحية البترون قديساً جديداً كثير العجائب، هو قديس كفيفان، وذكر بعض عجائبه، ثمَّ قال: أنذري لقديس كفيفان عليه السلام.

فندرت الأم لذلك القديس رطلاً من الشمع ، وإقّة من البخور ،
وخمسَ مجديّات .

وبعد أن عادَ الغرزوي إلى بيته أرسل إليها طوقاً من الفضة جاء به
من الدير بكيفيان للولد الصّغير بالفريكة . فألبسته الأم ابنها ، وباتت
تنتظرُ الأعجوبة ، وهي مستمرّة في معالجة أذن صغيرها بشتّى
الأدوية .

ما خيبَ القديسَ أملها . ولكنّه كان ، مثلَ الأدوية ، ومثل
الحقنة ، بطيئاً في عمله . فلم يُشفَ الصّغيرُ كُلَّ الشّفاء إلاّ بعد شهرين
من تطويق عنقه بالطوق الكيفيانيّ المقدّس .

وفي تلك الأثناء جاء والد الصّغير كتاباً من صديقه يدعوه
وعائلته لزيارة غرزوز ، فتلقت الأم الدّعوة فرحة وقالت : نزور غرزوز
ودير كيفيان . فقال الزوج المحبّ : كما تريدن .

جاء اليوم السّعيد ، يوم السفر ، فارتدت «الست» فستاناً من
الأطلس الأسود ، واعتصبت بعصابة من جنسه ولونه ، ثم تقلّدت
ساعتها في سلسلة من الذهب تدلّت على صدرها . ولبس «الخوaja»
سراويل من الجوخ الكحلي اللّون ، شدّها بمنطقة عريضة من الحرير
المخطّط ، يخفي نصفها ، من وراء ومن الجانبين ، تحت كبران مطرّز

الأطراف كجبي السراويل ، وتبدو من أمام كالهامش الفخم صُدريّة
سَوْداء ، ذات عشرين زراً ، مزرورة في أسفلها وأعلىها ليظهر من
خلال وسطها القميص الحرير ، الملتئم لونه الأصفر بلون المنطقة .

أما صغيرهما المطوق بطوق قدّيس كفيفان ، فقد كان يرُفّل في قباز
مخطّط معصفر ، مشدود الوسط بمنطقة من طراز منطقة أبيه . على
رأسه طربوش تعلوه كوفية بيضاء ، وفي رجله حذاء لمّاع عراه من
التحاس الأصفر . وكان وهو يمشي يرمق ذلك الحذاء بعيني العجب
والجدل .

«وهذا رطل الشمع ، وهذه إقّة البخور ، ضعها يا جرجس ، في
الخرج» .

وكان الخادم جرجس قد أنجز والمكاري تجهيز البغلة والبغل بما
تستوجب راحة المسافرين وسلامتهم من رُكْب ووسائد وسجّادات .
رسمت السيّدة شارة الصليب على وجهها ، واعتلت بمساعدة
جرجس ظهر البغلة ، فتمكّنت في جلستها ، ثمّ أجلست الصبيّ
المطوق أمامها . فشى المكاري حنا إلى جانب البغل مركوب الوالد ،
ومشى جرجس إلى جانب بغلة الوالدة .

— إلى غرزوز — إلى كفيفان .

هي رحلة العائلة المقدسة. استغفر الله. هي رحلة عائلة ترافقها القداسة، تطوق القداسة عنف صغيرها.
ذلك الصغير هو كاتب هذه السطور، وتلك الرحلة هي أولى رحلاته في هذه الدنيا.

٢ - شفاء من مرض في الطحال

يقول الأب اسطفان فرحات الجاجي، الراهب اللبناني، بعد شهادة أدلاها عن معاشته للأخ اسطفان:
النعمة التي نلتها على يده هي:

أصبت بتورم في الطحال سنة ١٩٥٥ بحيث ارتفع ضغط الدم معي إلى ٨ ملايين بينما معدله ٥ ملايين فرحت أتردد على الأطباء منهم: الدكتور أنطوان حنين في مستشفى مار يوسف - الدورة - لراهبات الصليب وكان الدكتور أحد تلاميذي في كلية القديس يوسف - بيروت - لذلك راح يبذل جهده لشفائي ويهمه فيصف لي الأدوية، فتذهب عبثاً. أخيراً أشار علي بنزع الطحال لثلاث أسباب لي ما لا تحمد عقباه. فذهبت إلى الدكتور فيليب طريه وبعد أن دقق

في الفحص، قال يجب نزع الطحال، وهكذا قال الدكتور ارنست حلو، أمّا أنا فلم أَسَلِّمْ بذلك نظرًا لإصابتي بداء السكر والزَّلَال في الدَّم، ولذلك بت أتحمل ألم الطحال إلى جانب تحملي ألم الكبد، مصليًا إلى الله ليتِمَّ إرادته في... وكُنْتُ أَزور من مرّة إلى أخرى الطوباي شربل والأخ اسطفان ليلهما في ماذا يجب عمله... إلى أن أُصِبت مؤخرًا بألم حادّ في ظهري وذلك في ٣ تموز ١٩٦٧، والسَّبب هو محاولتي نهض التخت، ففقع ظهري كعود صُلب يابس، وللحال أقعدني ذلك. وبِتَّ أَتَأَلَّم جدًّا بالرُّغم من استعمال وصفاتٍ عاديّة، كلّها باءت بالفشل، ومن جرّاء ذلك نَقَصَ وَزْنِي ١٤ كيلو بعد ثلاثة أشهر، فذهبتُ لزيارة الأخ اسطفان في مُنتَصَف شهر آب، ولأنِّي كُنْتُ أَتَأَلَّم جدًّا لم أَسْتَطِيع ضَبْطَ نفسي عن البكاء قَدَّامَ نَعْشِهِ، طَالِبًا إِلَيْهِ أَنْ يَشْفِينِي، وَيَطْلُبَ لي من الله أَنْ يُتِمَّ فيَّ إرادته القدُوسة، وكان رئيسُ الدَّير الأب يوسف خشان واقفًا ومَعِيَ الخادم الَّذي يُسَاعِدُنِي على المَسِير، ورجعتُ إلى أنطوش جليل وقتئذٍ، وفي الليل شعرتُ بألم شديد في الطَّحال أكثر من العادة، وفي الصَّبَاح لم أَعُدْ أَشْعُرُ بذلك، فَسَسْتُ طحالي فلم أَجِدْهُ متورِّمًا كالعادة، فلم أَخْبِر أَحَدًا بِذلك لئلا يَقُولَ إنَّني موهوم وذهبت ففحصت الدَّم فوجدته ٥ ملايين، بينما كان من مدّة شهر تقريبًا ٦ ملايين وكان ألمُّ ظهري على

شدّته فألهمت بتصويره ففعلت ، وإذا بالنتيجة أنّ خرزة مشقوقة وبين
١٤ - ١٥ تكلس بحسب رأي الدكتور إميل الرياشي الاختصاصي
بجراحة العظم والأعصاب ومن ثمّ وصف لي إبر ومشد ، فرجعت
أستعمل الإبر ، وإذا بالألم يخفّ شيئاً فشيئاً إلى الآن.

هذه النعمة لم أحدث أحداً عنها سوى ممرّضي في دير المسيح
المَلِك. فشكرتُ الله الذي يتمجّد بقدّيسه أسطفان. وأنا مُتابعٌ دائماً
الصّلاة إلى الرّوح القدس ليلهم ذوي الشّأن بِوُجوب تقدّم دعوى
تطويب الأخ أسطفان إلى المَجْمَع المقدّس ليطوّبه ، فيكون مثلاً
للرهبان وخاصّة الإخوة العملة في الرهبنة ، آمين.

دار المسيح الملك ، في ٢٩ تشرين الأوّل ١٩٦٧

الأب اسطفان فرحات اللبناني

٣ - شفاء من مرض الكلي والزلال

أنا الأخت كلار ابنة بَربر ومَجيّدة أبا حبيب من بيت شَباب ،
قَضَاء المتن الشمالي ، البالغة من العُمُر ثمانِي وثلاثين سنة حاصِلة بعون
الله على العقل التام والرّشد الكامل دخلت الرهبانيّة في دير مار يوحنا

حَرَّاشَ بِعَمَرٍ ٢٣ سَنَةً. أَصِبتُ بِمَرَضٍ أَلِيمٍ جَدًّا لَا يُطَاقُ بَعْضُ
 الْأَحْيَانِ. التَّيْهَابُ الْكَلْبِيُّ وَمَرَضُ الرِّلَالِ يُحْدِثَانِ تَسْمُمًا فِي الْجَسْمِ
 يَضْطَرُّنِي إِلَى دُخُولِ عِدَّةٍ مُسْتَشْفِيَّاتٍ مِنْهَا أُوتِيلُ دِيوٍ وَمُسْتَشْفَى بَعْدًا
 وَغَيْرَهُمَا وَقَدْ تَعَالَجْتُ كَثِيرًا وَأَيْضًا تَأَلَّمْتُ كَثِيرًا رَغْمَ الْأَدْوِيَةِ وَالْعَقَاقِيرِ
 الطَّبِيَّةِ وَكَانَ طَبِيبِي الْخَاصَّ الدُّكْتُورَ إِلْيَاسَ شَمَالِي مِنْ سَهِيلَةِ كَسْرَوَانَ
 الْمَعِينِ طَبِيبًا لِلدَّيْرِ وَقَدْ شَهِدَ هُوَ نَفْسَهُ بِأَنِّي بَقِيتُ أَثْقَلَى وَأَتَعَذَّبُ عَلَى
 فِرَاشِ الْمَرَضِ مَدَّةَ عَشْرِ سَنَاتٍ مُتَوَاصِلَةٍ دُونَ اسْتِفَادَةٍ وَقَدْ أَجْرِي
 لِي فِي أُوتِيلِ دِيوٍ لَا أَقَلَّ مِنْ عَشْرِ صُورٍ عَلَى الْأَشْعَةِ كَانَتْ تُعْطَى إِشَارَةً
 إِلَى أَنَّ الْكَلْبِيَّ تَفَرَّزَ عَمَلًا مِنْ شِدَّةِ الْإِلْتِهَابِ وَعِنْدَمَا قَطَعْتُ الْأَمَلَ فِي
 الشِّفَاءِ وَالْأَطْبَاءِ وَمَنْ جُمِلَتْهُمْ الْبُرُوفْسِيرُ أَنْطَوَانَ مِرْعَبَ رَئِيسَ أَطْبَاءِ
 أُوتِيلِ دِيوٍ الَّذِي تَمَنَّعَ أَخِيرًا عَنْ مَعَالَجَتِي زَرْتُ بِمَعِيَةِ إِحْدَى الرَّاہِبَاتِ
 وَأَهْلِي دِيرِ كَفِيفَانَ حَيْثُ ضَرِيعُ الْأَخِ اسْطَفَانَ فَاَعْتَقَدْتُ بِإِيْمَانٍ حَيٍّ
 أَنَّنِي إِذَا لَمَسْتُ جِثْمَانَهُ أَشْفَى تَمَامًا وَبِالْفِعْلِ تَمَكَّنْتُ مِنْ لَمْسِهِ وَلِلْحَالِ
 شَعَرْتُ بِأَنَّ الْمَرَضَ زَالَ عَنِّي تَمَامًا عِنْدَئِذٍ أَكَلْتُ مِنْ كُلِّ الْأَطْعَمَةِ الَّتِي
 كُنْتُ مُحْرَمَةً مِنْهَا مَدَّةَ الْمَرَضِ الْمَذْكُورِ دُونَ أَدْنَى أَنْزَعَاكِ وَشَبْهَةٍ وَإِلَى
 الْآنَ وَقَدْ مَضَى عَلَى شِفَائِي سِتُّ سَنَاتٍ وَنِيفَ أَشْعُرُ بِرَاحَةٍ تَامَةٍ
 وَصَحَّةٍ جَيِّدَةٍ حَسَبًا تَقْرَأُونَ تَقْرِيرَ الطَّبِيبِ الْمَذْكُورِ.

وَإِنِّي أَشْكُرُ اللَّهَ أَوَّلًا ثُمَّ الْأَخَ اسْطَفَانَ الَّذِي مِنْ عَلَيَّ بِهَذَا الشِّفَاءِ

التامَّ إنِّي أعيشُ بلا كلي راحةً عظيمة مستعدةً إلى حلف اليمين
القانونية عند اللزوم
الأخت كلار أبي حبيب
١٩٦٦/١/٢٣

أشهد بأنَّ الأخت كلار أبي حبيب كانت مُصابةً بالتهابِ الكلي
المُزمن وبزيارتها للأخ البارَّ اسطفان نعمه شُفيت تمامًا أشهد بضميري
ووجداني.

الأم مارينا معلوف

الرئيسة العامة لدير مار يوحنا المعمدان السابقة

تقرير الطبيب :

أنا الموقع اسمي أدناه الدكتور إلياس شمالي أصرّح بأنَّ الأخت
كلارا أبي حبيب من راهبات مار يوحنا حراش كان يُوجدُ عندها
التهاب في الكلي مع زلال. وينتابها من حينٍ لآخر نوبات ألم وبقيت
على هذه الحالة مدّة عشرِ سنوات رغماً عنِ المُعالجات الطبيّة
والمُستشفيات.

وإنّها من مدّة ستّ سنوات لم تعدّ تشعر بأيّ ألم وأصبحت
بصحةٍ جيّدة تمامًا دون علاج وذلك حسبَ قولها بفضل النعمة التي

نالَها من البارِّ الأخ نعمة وبيَّارَها لدير كفيفان حيثُ جُثَّانُ الأخ المذكور وللبيان وعلى طلب الاخت كلار المذكورة أعلاه أعطيتُها هذه الإفادة بالواقع تمامًا.

في ٢٣ كانون الثاني ١٩٦٦ الدكتور إلياس الشمالي

٤ - أعجوبة ميفوق

كان عمر أنيس الحشاش ستين عامًا عندما أدلى بشهادته هذه، وامتتعتا بوعيه الكامل. قال :

قد أصابني ألمٌ شديد في مَحالي تحوّل منها إلى الخصية اليمنى حتّى اختفت معها اليسرى. فذهبت إلى الأطباء أستشيرهم في حالتي طالبًا الشفاء فعالجوني بالعقاقير والأدوية فازدادت حالتي سوءًا وبلغ الورم حجمَ الإبريق. وكنت أدقّه فلا أشعر بألم. بقيت على حالتي ثماني سنوات أقاسي من الألم أمرّه فقصدتُ يومًا أنطوان بعقليني فحكّم عليّ بوجوب إجراء عملية جراحية ولكنني رفضت خوفًا من أسفحال المرض. فأقنعتني ابن عمّي عزيز الحشاش، مختار منطقة دير القطارة، بوجوب إجراء العملية الجراحية.

في شهر شباط ١٩٧٠، عشية يوم إجراء العملية غفوت. وفي

أثناء نومي، شعرت بيدٍ تلمسني وسمعت صوتاً يقول:
- يا أنيس، شو قضيتك حجر طحن بدو قلب، أنا الأخ
اسطفان أشفيك.

عرفت الصوت، لأنه سبق وأنا صغير، أن عايشت الأخ
اسطفان، ثلاث سنوات في دير القطارة، فقلت:

- يا معلّمي الأخ اسطفان، إذا كنت قديساً وشفيتني من
مرضي، فإنني أنذر أن أكرّس يوم الشفاء عيداً سنوياً.
وفي الصّباح وجدت نفسي قد شفيت تماماً من ذلك المرض
وزال الورم.

وبعد قليل أتى ابن عمّي عزيز، وقال لي:

- هيا بنا نذهب إلى بيروت لإجراء العملية.

- قد أُجريت العملية.

وكشفت له عن المكان الذي كان مُصاباً. فلم ير أثراً للورم.

فجدد الله وسبحانه.

وأشهد بهذا بحسب ضميري ووجداني وأحلف اليمين.

المقرّب بها فيه

أنيس الحشاش

٥ - شفاء من تآليل

قال السيّد ميشال الناعم: ١٩٦٥ طلع لي بكفّ يدي تواليل وأصبح يمتدّ حتّى غدا يفوق المائة. وكان يقيح فيزعجني ولم أعد أقوى على العمل، لأنّها تشقّ ويخرج منها الصديد. وكانت تؤلّمني جدّاً. استعملت مراهم كثيرة فلم تُفدني. وقد أرسلني المرحوم واكيم البيطار، إلى بيروت عند الدكتور تابت، المخصّص للبثور. فأراد أن يجري لي عمليّة على الكهرباء، فلم أقبل وعُدت إلى بيتي. فقالت أختي:

- التجئ إلى الأخ اسطفان.

فندرت له قائلاً:

- يا معلّمي الأخ اسطفان، إذا شفيتني، أذهب إلى زيارة ضريحك حافياً على الأقدام.

وفي اليوم الثالث لنذري قشرت هذه التواليل وتوارت وشفيت منها تماماً، فسيرت في الصّباح وذهبت لما وعدت أشكر الله ومعلّمي الأخ اسطفان.

أعترف بهذا وأشهد بموجب ضميري ووجداني

ملحق

١ - شهادة رئيس دير كفيفان

«غادر هذه الحياة الفانية نهار الثلاثاء، الساعة السابعة مساءً، في الثلاثين من آب ١٩٣٨، الأخ اسطفان نعمه اللّحفدي. وكان أختاً نشيطاً عاملاً غيوراً على مصلحة الدّير. قويّ البنية، صحيح الجسم، مُسالماً بعيداً عن الخُصومات، قنوعاً، فطناً بالأعمال اليدوية، محافظاً على واجباته ونُدوراتهِ، قائماً بما عُهد إليه حقّ قيام. «وقبل وفاته ببضعة أيّام، ذهبَ إلى دير سيّدة ميفوق بخصّوص تحديد الأرض، لأنّ الرّهبنة كانتِ اشترت من بعض شركاء الدّير أملاًكاً تحضّهم أيّام الحرب. وكان رَحِمه الله آنذاك في دير ميفوق. وفي الخريف الماضي ثارَ الشركاء المذكورون على الرّهبانية وادّعوا ملكيّة كلّ الأراضي. فاضطّرت الرّهبانيّة إلى إثبات ملكيّتها وتعزيرها،

فاستدعت لجنة المَسَاحَة لمسح أراضي الدَّير، لأنَّ البائعين كانوا قد أخفوا التُّخوم، فدُعِيَ رَحْمَهُ الله، إلى هناك ليدلَّهم على التُّخوم وكان لا زالَ يعرفُها تمامًا، فرفع التُّراب عنها فبانت كما كانت، ووقع الاتفاق عليها حين البيع. فأثر فيه الحرُّ فأصابته وعكةٌ بسيطةٌ تلاها دورٌ حُمى ثم سكتةٌ دماغيةٌ كانت نهايةَ حياته، رحمه الله.

الأب انطونيوس نعمة

رئيس دير كفيان

٢ - شهادة الأب لويس البتروني

«أنا الأب لويس البتروني المُرسَل الرسولي، قد بلغت من العُمُر الأربعة والثمانين. ولا أزال بعون الله وكرمه حاصلاً على عقلي وانتباهي كاملين، أشهد بحسب ضميري ووجداني، أنني كنت أعرف الأخ اسطفان نعمة اللّحفدي راهباً قانونياً طاهراً عفيفاً لطيفاً فقيراً مجرّداً عاملاً ساعياً لمجد الله تعالى وخبير الرهبانية، وديعاً لا يعرف الغضبُ إلى قلبه سبيلاً وكان مناراً للأجراء التّابعين له، صمّوتاً لا يتكلّم إلا الكلام اللازم، وبالاختصار كان راهباً خفيف الروح محبوباً من الجميع نظراً لفوائده المادية، ومثله الصّالح. وكان الرؤساء يتسابقون على طلبه ويتنازعونه ليكون في أديارهم بين مرؤوسيهام مثلاً يُحتذى به. ولقد كانت حياته حياة عملٍ ونشاط لا فراغ فيها.

«والفضائل التي أمتازَ بها هذا الرَّاهِبُ إِنَّمَا هي الوَدَاعَةُ والهُدُوءُ
وَسُكُوتُ الضَّمِيرِ، وَإِذَا حَدَّثَتْ مَشَاجِرَ بَيْنِ جَمَاعَةٍ فَضَّهَا سَرِيعًا
بَوْدَاعَتِهِ، وَكَمْ كَانَ يَسْمَعُهُ النَّاسُ وَإِخْوَتَهُ الرُّهْبَانُ مُرَدِّدًا «اللَّهُ يَرَانِي.
اللَّهُ يَرَانِي».

«هَذِهِ شَهَادَتِي أَرْوِيهَا بِحَسَبِ ضَمِيرِي وَوُجْدَانِي»

الأب لويس البتروني

المرسل الرسولي

الفهرس

٥

١٩

٢٣

٣١

٣٥

٤١

٤٧

٥٥

٦٥

لحفذ

يوسف

الله يراني

الصلاة

وفاة الوالدة

نبح الغرير

نداء الربّ

إلى دير كفيّان

جئتُ لأبقى

٧٧	الابتداء
٨٥	الصلاة وليس الأكل
٩١	الراهب
٩٩	الوفاة
١٠٩	عَرَف القداسة
١١٧	الآيات
١٣١	ملحق
١٣٥	الفهرس